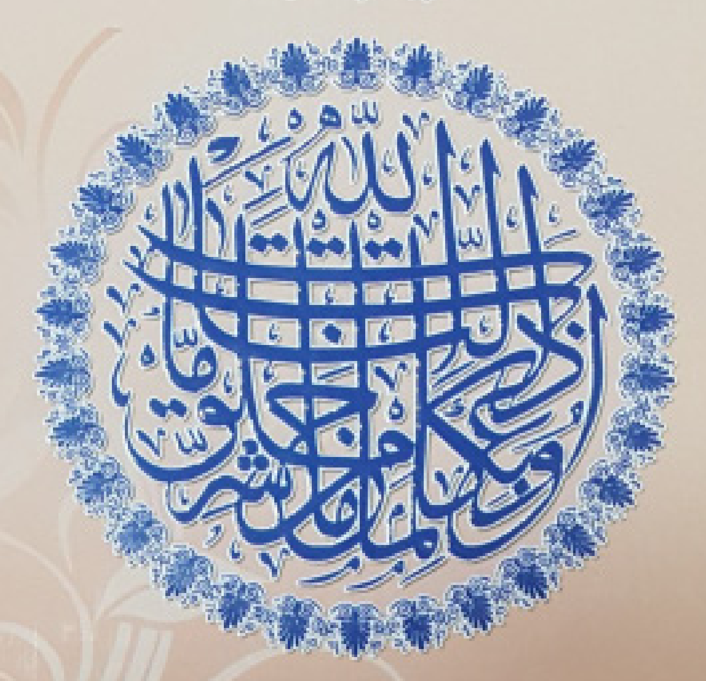
تقرير الدروس سماحة المرجع الديني آية الله العظمى

السيد محمد تقي المدرسي

بينات من فقه القرآن

دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الإلهية من آيات الذكر الحكيم

(سورة الزخرف)



إعداد سماحة السيد صادق المدرسي


بسم الله الرحمن الرحيم



مركز العصر للثقافة والنشر
alasrr@gmail.com

بَيِّنات من فقــه القرآن.. دراســةٌ قرآنيّةٌ تعتمد إســتنباطَ السُّــنَنِ الإلهية من آيــات الذكر الحكيم - ســورة الزُّخرف

تقريراً لدروس سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرِّسي

❋ **إعداد**: سماحة السيد صادق المدرسي.

❋ **تحقيق**: مركز العصر للثقافة والنشر.

❋ **الطبعة**: الأولى، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م. (٢٦٤ صفحة).

❋ **الناشر**: دار المحجة البيضاء - لبنان بيروت.

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال - ص.ب: ١٤/٥٤٧٩

هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com



دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع



دراسة قرآنية تعتمد استنباط السنن الالهية من آيات الذكر الحكيم

(سورة الزُّخرف)

تقرير الدروس سماحة المرجع الديني آية الله العظمى

السّيّد محمّد تقي المُدرّسيّ

إعداد سماحة السيد صادق المدرسي

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(١)

الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ(٢)

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(٣)

مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ(٤)

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥)

اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ(٦)

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ

غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ(٧)﴾





المحتويات

المقدمة ١٣

تمهيد ١٥

الحروف المقطّعة ١٩

القَسَم آية العظمة ٢١

لعلّكم تعقلون ٢٤

أمّ الكتاب ٢٧

افنضرب عنكم الذكر ٣٠

أنبياء في الأوّلين ٣٤

كانوا به يستهزئون ٣٦

مضى مثلُ الاوّلين ٣٨

خلقهنّ العزيزُ العليم ٤٠

جعل لكم الأرض مهداً ٤٤

كذلك تُخرجون ٤٧
خَلَق الأزواج كلّها ٥٢
لتستووا على ظهوره ٥٥
الى ربّنا لمنقلبون ٥٨
لكفورٌ مبين ٦٠
إتخذ البنات؟! ٦٤
وهو كظيم ٦٦
يُنشَّؤا في الحِليَة ٦٨
ستُكتب شهادتهم ٧٠
ما لهم بذلك من علم ٧٤
به مُستَمسِكون ٧٧
وجدنا آباءنا على أمّة ٧٩
على آثارهم مقتدون ٨١
جئتُكم بأَهدى ٨٥
عاقبة المكذِّبين ٨٨
بَراءٌ ممّا تَعبُدون ٩٠
انّه سَيَهدين ٩٤
كلمة باقية ٩٧
مَتَّعتُ هؤلاء وآباءَهم ١٠٠
هذا سحرٌ ١٠٣
رجل من القريتين عظيم ١٠٦

رفعنا بعضهم درجات ١٠٩
سُقُفاً من فضّة ١١٣
سُرراً عليها يتكئون ١١٦
بين متاع الدنيا والآخرة ١١٨
شيطانٌ قرين ١٢٢
يصدون عن السبيل ١٢٦
بئس القرين ١٢٨
في العذاب مشتركون ١٣٠
أفأنت تسمع الصمّ ١٣٢
إنّا منهم منتقمون ١٣٥
إنّا عليهم مقتدرون ١٣٧
انّك على صراط مستقيم ١٣٩
سوف تُسألون ١٤١
واسأل من أرسلنا ١٤٣
أرسلنا موسى بآياتنا ١٤٨
إذا هم منها يضحكون ١٥٢
لعلّهم يرجعون ١٥٥
يا أيُّها السّاحر ١٥٧
إذا هم يَنكثون ١٦٠
أليس لي مُلك مصر ١٦٢
لا يكاد يبين ١٦٦

أسورة من ذهب ١٦٨
فاستخفّ قومه فاطاعوه ١٧١
انتَقمنا منهم ١٧٤
فجعلناهم سلفاً.. ١٧٧
قومك منه يصدّون...................................... ١٧٩
بل هم قوم خصمون...................................... ١٨٢
عبدٌ أنعمنا عليه ١٨٤
ملائكة في الارض...................................... ١٨٧
وإنّه لعلمٌ للساعة ١٨٩
لا يصدنّكم الشيطان.................................... ١٩٢
جئتكم بالحِكمة ١٩٥
هذا صراط مستقيم ١٩٨
فاختلف الاحزاب ٢٠٢
الساعة تأتي بغتة...................................... ٢٠٥
بعضهم لبعض عدو....................................... ٢٠٨
لا خوفٌ عليكم ٢١١
آمنوا بآياتنا ٢١٣
أنتم وأزواجكم... ٢١٥
ما تشتهيه الأنفس...................................... ٢١٨
بما كنتم تعملون....................................... ٢٢٢
فاكهة كثيرة ٢٢٤

في عذاب جهنّم ٢٢٦
كانوا هم الظّالمين ٢٢٨
ليقض علينا ربّك ٢٣٠
للحقّ كارهون ٢٣٣
فإنّا مُبرمون ٢٣٥
علاج التبرير ٢٣٨
أوّلُ العابِدين ٢٤٠
سبحان ربّك عمّا يصفون ٢٤٤
يخوضوا ويلعبوا ٢٤٦
في السماء اله وفي الارض ٢٤٩
اليه ترجعون ٢٥٣
إلّا من شهد بالحق ٢٥٦
أنّى يُؤفَكون ٢٦٠
قومٌ لا يؤمنون ٢٦٣





المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد المرسلين محمدٍ وآله الطاهرين.

ربّنا المحيط علماً وقدرة بكل شيء قد جعل في الأشياء حين خلقها الكثير الكثير من المنافع حتى كادت لا تُحصى عدداً. فإذا نظرتَ إلى جسمك، لرأيت ما في الكبد والكلية والقلب والدماغ وغيرها من فوائد ما يصعب على الخبراء إحصاؤها، كذلك في كل حيٍّ أو نبات أو جماد.

وكما في عالَم الخلقة، كذلك في عالم كتابه الكريم وكلماته المضيئة، والتي هي مرآة ما في السماوات والأرض من حقائق، وبيان كل شيء. ففيها من آفاق المعرفة الكثير الكثير بحيث ﴿لَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾.

ولكننا نحن البشر حين ننظر الى خلق ربنا نرى جانباً واحداً منه، أو جوانب محدودة، وهكذا حين نتلو كتاب ربنا لا نرى فيه إلّا

معنى واحــداً أو جزءاً من معنى. ولو تدبرنا فيه أكثر فأكثر لا نفتحت قلوبنا عــلى المزيد من آفاقه التــي لا تُحُدّ، فالقــرآن ذا بطون تتجاوز السبعين بطناً، كلَّما تعمقت في دراسة بطنٍ وجدتَ من ورائه بطوناً.

وكذلك تالي كتاب ربه، إذا ســما إلى معرفة قائل الكتاب الحميد العزيز، وعرف أنه تجليات لأســمائه ولسُــنَنِه التــي لا تتغيرَّ، وبالتالي لمعارف الدين وعلومه، هنالك تتفتح بصائره.

ألا ترى كيف إختلفت تفاسير الكتاب؟ ولعل جميعها صحيحة، إذ للقرآن تخومٌ، ولعل كل مفسرٍّ تحدَّثَ عن جانب منها.

مــن هنا نهيب بقارئ كتاب الله أن يغــترف من بحار علومه ما استطاع الى ذلك سبيلاً من غير أن يكلَّ من كثرة النظر أو يمل.

وبالذات عليه أن يعرض على آياته المباركة ما لديه من حاجات ومن أسئلة، ويسعى جاهداً لاستنطاق الكتاب بها.

وكلمة السر في فقه القرآن الكريم إيمانك بربك، وأن تستعين به، وأن تستعيذ به من الشيطان الذي يحاول أن يلقي وساوسه في نفسك، وبالتالي أن تبقى وراء باب رحمته الواســعة تطرق وتطرق حتى ينفتح قلبك بإذن الله.

وهذه البصائر التي تجدها في مطاوي التدبر في ســورة الزخرف إنما هي بعض ما أفاض الله ســبحانه علينا، ولديه تعالى المزيد لمن أراد، والله المستعان.

محمد تقي المدرسي

كربلاء المقدسة

١٧/ رجب/ ١٤٣٨هـ



تمهيد

تُعدُّ سورة الزُّخرف المُباركة ضمن سُور الحواميم التي تصطبغ بعطرٍ خاص، وإذ يتكرّر الحديث عن الايمان بالله واليوم الآخر في جميع السُور القرآنية إلّا أنّ لكلّ سورة مواضيع أخرى تتميّز بها.

وعلينا أن نُولي المزيد من الاهتمام بالتدبّر في المواضيع التي تختصّ بها السور القرآنية من أجل معالجة المعضلات الفكرية، والأمراض النفسية، أو حتّى الانحرافات الاجتماعية بكتاب ربّنا المجيد.

وبكلمة فإنّ سورة الزُّخرف المُباركة جاءت من أجل تصحيح الاهداف لدى الانسان، وتصحيح رؤيته تجاه المادّة.

إذ إنّ للانسان أهدافاً متنوعة في الحياة، ولكن ليست كلّها بذات المستوى، إذ فيها تراتبية خاصّة، وما دام الأمر كذلك، فلابدّ للانسان أن يبحث عن الهدف الأهم في الحياة، ولا يستبدل ذلك الهدف باللذّة المادّية الرخيصة.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَمَا خُلِقْتُ لِيَشْغَلَنِي أَكْلُ الطَّيِّبَاتِ،**

كَالْبَهِيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّهَا عَلَفُهَا، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُهَا تَقَمُّمُهَا، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِهَا وَتَلْهُو عَمَّا يُرَادُ بِهَا»[1].

إنّ تبصّر الانسـان بحقيقـة وجوده في الحيـاة يدلّه على هدفٍ أسـمى وغاية عُليا خُلق من أجلها فتراه يقول: ﴿رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾[2].

ولذلك يقول ربّنا المتعال: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاَّ مَتاعُ الْغُرُورِ﴾[3].

فالهدف الحقيقي للانسان هو مرضاة الله ودخول الجنّة. وجاءت هذه السورة لتصحيح مسار الانسان في اتخاذه للاهداف.

وقبل التدبُّر التفصيلي في آيات السورة واحدة واحدة، علينا أن نلقي نظرة عامة على مضامين السورة بإيجاز:

أولاً: إسـم السـورة يدلّ على الاضافة والزينة، فقد يبني المرء أساس البيت وجدرانه، وقد يُزيِّن البيت وهو الزُّخرف.

ثانياً: يُبيّن ربّنا تعالى – في بعض آيات السـورة – موقع المال في حياة الانسان، وهل هو مقياس ومعيارٌ للحقّ والباطل أم لا؟

ففي الآية الخامسة يتحدّث عن الاسراف قائلاً: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾[4] ويُبينّ أنَّ المالكية الحقيقية هي لله المُتعال.

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٤١٨.
(٢)- سورة آل عمران، الآية١٩١.
(٣)- سورة آل عمران، الآية١٨٥.
(٤)- سورة الزخرف، الآية٤.

ثالثاً: بعد ذلك يُبـيّن كيفية التعامل مع ما نملك، ويضرب من الانعام مثلاً لذلك فيقول: ﴿لِتَسْـتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُـمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾(1).

رابعاً: وفي الآية ١٤ يعود السـياق للتأكيد على الهدف الأسمى فيقول: ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾(2).

خامساً: ثمّ يُعرّج السياق القرآني على المرأة (الآيات ١٦-١٩) ليُصحّح النظرة لها، فهي ليست مُجرّد زينة بل هي ذات مكانة إنسانية.

سادساً: ثم في الاية ٢٣ يُبيّن دور المترفين في إضلال الناس وفي إفساد المجتمعات.

سابعاً: وبشكل صريح يُبَيِّن ربنا في الاية ٣٣ أنّ وجود الاموال عند الكُفّـار لا يدلّ على أنّهم مُقرّبون الى الله سـبحانه وتعالى فيقول: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُـونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَـنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾(3).

ثامناً: ومن ثمّ يُبـيّن في آية أخرى - وفيما يرتبط بفرعون - عن الإغترار بالمال، حين يقول: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾(4).

فاغتراره صـيّره فرعوناً، وهكذا كلّ من يغـترّ بالمال ينتهي به الأمر الى ذات المصير.

(١)- سورة الزخرف، الآية١٣.
(٢)- سورة الزخرف، الآية١٤.
(٣)- سورة الزخرف، الآية٣٣.
(٤)- سورة الزخرف، الآية٥١.

تاسـعاً: تبيِّن الآيات أنّ الموقف السـلبي للعَـرب تجاه النبي عيسـى عليه السلام الذي كان يسـيح في الارض، ناتج مـن اتخاذهم للمال معياراً والثروة قيمة أساسية.

عاشراً: وهكذا الحديث عن الآخرة وما فيها، وكذلك الحديث عن ما يرتبط بجوانب مكمِّلة لهذه الافكار.

وبمجمـوع هذه الآيات بالاضافة الى اسـم السـورة المباركة نستلخص أنها تتناول الموقف الصحيح من الثروة ومتاع الحياة الدنيا.



الحروف المقّطعة



﴿حم ۝١﴾.

* * *

من الحديث

عن الامام الصــادق عليه السلام في حديثٍ عن الحــروف المقطَّعة في بدايات السور، قال:

«وَأَمَّـا ﴿حم﴾ فَمَعْنَـاهُ الْحَمِيدُ الْمَجِيدُ وَأَمَّا ﴿حم عسـق﴾ فَمَعْنَاهُ الْحَلِيمُ الْمُثِيبُ الْعَالِمُ السَّمِيعُ الْقَادِرُ الْقَوِي».[1]

تفصيل القول

في كلّ اللغات وعبر العصور نجد بعض الكلمات التي تُستخدم لأجل تنبيه المُتلقّي، وهكذا هو إســتخدام القــرآن الكريم للحروف

(١)- معاني الأخبار، ص٢٢.

المقطّعة.

فقد يكون ذلك أحد أبعاد وجود الحروف المقطّعة في القرآن الكريم، واختلافها وعدد حروفها، كما في ﴿حم﴾ أو ﴿ألم﴾ أو ﴿كهيعص﴾. إذ تشير بالاضافة الى المعنى الاوّل الى معانٍ أخرى تتناسب مع إيقاع السورة ومعانيها بل ومنظومة السور كما في الحواميم.

واقتران الحروف المقطَّعة عادة مع الحديث عن القرآن يدلّنا على أسلوب هو قمّة في البلاغة، وهو ترسيخ القرآن نفسه بنفسه، باعتبار الآية في مستهلّ البحث عن منظومة من الافكار التي ترِد في هذه السورة، فكان من الجدير الحديث عن ذات السورة، ولذلك جاء الحديث عن الكتاب المُبين.



بصائر وسُنَن

في كلّ اللغات وعبر العصور نجد بعض الكلمات التي تُستخدم لأجل تنبيه المُتلقّي، وقد يكون هذا أحد أبعاد إستخدام القرآن الكريم للحروف المقطّعة.



القَسَم آية العظمة

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢﴾.

* * *

من الحديث

عن الامام موسى بن جعفر عليه السلام في حديث طويل، قال:

«أَمَّا حم فَهُــوَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله وسلم وَهُوَ فِي كِتَابِ هُــودٍ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، وهُوَ مَنْقُوصُ الْحُرُوفِ، وأَمَّا الْكِتابُ الْمُبِينُ فَهُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السلام»[1].

تفصيل القول

يُستخدم القَسَم لربط حقيقتين بعضهما ببعض، ممّا يعكس إهتمامنا بالحقيقة الأخرى، وحينما يُقسم ربّنا هنا بالكتاب المُبين يعني

(١)- الكافي، ج١، ص٤٧٩.

ذلك مدى أهمية كتاب ربّنا العظيم.

فربّنا العظيم بأسمائه الحُسنى وآياته الكُبرى يُقسِم بشيء، فذاتُ القسم دليلٌ على عظمة ذلك الشيء، فنجد أنّه يُقسم بالشمس والقمر والنهار تارةً وبمواقع النجوم تارة أخرى، وفي كلّ ذلك إشارات لعظمة هذه الأمور، كما يقول الرب تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[1].

الكتاب المُبين

لابدّ من ثبوت خارطة الطريق ووضوحها قبل تطبيقها، وهكذا القرآن الكريم الذّي يُمثّل خارطة الطريق للانسان الذي يُخرجه من الظلمات الى النور لابدّ أن يتوفّر فيه الثبات والوضوح، فهو إذن كتابٌ مبين.

» إنّ تحدّي القرآن الكريم للانس والجن أجمعين كان ولا يزال في إبطال آية منه، أو أن يأتوا بمثله، وأنّى لهم ذلك وهو كتابٌ من الله العزيز الحكيم.

تحدّي القرآن

ومن هنا نجد أنّ تحدّي القرآن الكريم للانس والجن أجمعين كان ولا يزال في إبطال آية منه، أو أن يأتوا بمثله، وأنّى لهم ذلك وهو كتابٌ من الله العزيز الحكيم.

فالكتاب ثابت، وهو بالاضافة الى ذلك فهو مبين، ونفهم معنى ذلك من خلال الآيات القادمة.

---

(١)- سورة الواقعة، الآية ٧٥-٧٦.



بصائر وسُنَن

لابدّ من ثبوت خارطة الطريق ووضوحها قبل تطبيقها، وهكذا القرآن الكريم الذّي يُمثّل خارطة الطريق للانســان الذي يُخرجه من الظلمات الى النور لابدّ أن يتوفّر فيه الثبات والوضوح، فهو إذن كتابٌ مبين.



لعلّكم تعقلون

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③﴾.

***

من الحديث

قد جاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام:

«مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى كِتَاباً ولَا وَحْياً إِلَّا بِالْعَرَبِيَّةِ فَكَانَ يَقَعُ فِي مَسَامِعِ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام بِأَلْسِنَةِ قَوْمِهِمْ، وكَانَ يَقَعُ فِي مَسَامِعِ نَبِيِّنَا بِالْعَرَبِيَّةِ»[1].

تفصيل القول

تكاد تغيب عنّا معاني بعض كلماتِ القرآن الكريم لغلبةِ المعنى العُرفي عليها، فنحن لا نعرف من الصلاة - مثلاً - سوى الهيئة

(١)- علل الشرائع، ص٥٣.

الخاصّة، غافلين أنّ للكلمة أبعـاداً أخرى، كقوله تعالى عن الطيور: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[1] فالصلاة بمعنى الدعاء.

وهكذا ينبغي أن نسـلخ الكلمات القرآنية عـن المعاني الذهنية ونربطهـا بالمعاني الحقيقية، ومن ذلك كلمة (القرآن)، حيث إنّه يعني: الشيء المجموع. ومعنى ذلك أنّه جمعٌ منظّم متّصل بعضه ببعض، ولا يكون الشيء منظّماً إلّا إذا كان وراء تنظيمه حكمة وهدف.

فليس إعتباطاً جُمعت الكلمات، وإنّما كان ذلك كما يقول القرآن الكريم: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

» حينما يتّبع الانسان هُدى عقله فإنّه يهتدي بلا شك، ولكن حين يُدفَن العقل تحت رُكام من الجهل والشهوة وباقي الحُجُب يأتي القرآن الكريم ليستخرج ذلك النور من بين الرُكام.

التناسق بين الآيتين

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾

ومعنى كلمة: (عَرَبِيًّا) هو الواضح في نفسه والموضِّح لغيره، وإنّما سمّى العرب أنفسهم بذلك لأنّهم يتفاهمون بينهم، ولذات السبب أطلقوا على غيرهم العجم، وقولي: (أُعْرِب) بمعنى أنّي أفصح عمّا بداخلي.

فإذن بالمقارنة بين الآيتين الثانية والثالثة نلاحظ التناسق بينهما، فنجـد أنّ كلمة (القرآن) تسـاوي كلمة (الكتـاب) وكلمة (عربياً) تساوي كلمة (المُبين).

ثمّ يبـيِّن القرآن الكريم الحكمة من نـزول القرآن فيقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

(١)- سورة النور، الآية٤١.

ولفهــم تلك الحقيقــة نتأمّل في رواية أمــير المؤمنين عليه السلام حين يقــول: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُــلَهُ، ووَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَاءَهُ، لِيَسْــتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، ويُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِــيَّ نِعْمَتِهِ، ويَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، ويُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُول**»[1].

حينما يتّبع الانسان هُدى عقله فإنّه يهتدي بلا شك، ولكن حين يُدفَن العقل تحت رُكام من الجهل والشهوة وباقي الحُجُب يأتي القرآن الكريم ليستخرج ذلك النور من بين الرُكام.

ونستفيد من هذه الآية أنّ هناك تفاعلاً بيننا وبين القرآن الكريم، بمعنى أنّ كتاب ربّنا المجيد يوفّر فرصة الهداية للانســان، والانسان بدوره يقوم بالاستفادة من تلك الفرصة كما يستفيد من أشّعة الشمس المُشرقة، وربّما في كلمة لعلّكم إشــارة لدور الإنســان في فهم حقائق القرآن الكريم.

فمســؤولية الهداية تقع على عاتق الانســان ذاته، ولكن القرآن الكريم يوفّر فرصة ذلك لا أن يجبر الانسان عليها.



بصائر وسُنَن

هناك تفاعــلٌ بيننا وبين القرآن الكريم، بمعنــى أنّ كتاب ربّنا المجيد يوفّر فرصة الهداية للانســان، والانسان بدوره يقوم بالاستفادة من تلك الفرصة كما يستفيد من اشعة الشمس المُشرقة.

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٤٣.



أمّ الكتاب

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

***

من الحديث

عن محمد بن مسلم، عن أحد الإمامين (الباقر او الصادق) عليهما السلام، أنَّه سُئل عن ليلة القدر، فقال:

«تَنْزِلُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ والْكَتَبَةُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا،

فَيَكْتُبُونَ مَا يَكُونُ فِي أَمْرِ السَّنَةِ ومَا يُصِيبُ الْعِبَادَ،

وأَمْرُهُ عِنْدَهُ مَوْقُوفٌ لَهُ وفِيهِ الْمَشِيئَةُ،

فَيُقَدِّمُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ ويُؤَخِّرُ مِنْهُ مَا يَشَاءُ ويَمْحُو ويُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتاب»[1].

(١)- الكافي، ج٤، ص ١٥٧.

تفصيل القول

حين نقرأ كتاب ربّنا العظيم وآياته المباركات علينا أن نستنفذ كافّة طاقاتنا العلمية لفهمه وأن نتعقّل بنور القرآن ونتفكّر في آياته الكريمة لنهتدي بهُداه.

ومن أبعاد تلك الحقيقة أنّ القرآن الكريم في (أمّ الكتاب) وهو ما يسمّى تارة باللوح المحفوظ وتارة يُعبّر القرآن الكريم عنه بقوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[1].

وقد يُراد به روح القُدس الذي يتنزّل في ليلة القدر كما قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾[2].

وقد يكون الامام المعصوم عليه السلام، إلّا أن فهمنا قاصرٌ عن إدراك كُنه تلك الحقيقة.

ومهما كان فكلّ كتاب ينزلُ من السماء لديه أصلٌ في (أمّ الكتاب) بِدءاً من الكُتب السماوية ووصولاً الى كتاب كلّ فرد وأرزاقه وحياته وموته، فكل شيء أحصاه ربّنا في إمامٍ مُبين.

» حين نقرأ كتاب ربّنا العظيم وآياته المباركات علينا أن نستنفذ كافّة طاقاتنا العلمية لفهمه وأن نتعقّل بنور القرآن ونتفكّر في آياته الكريمة لنهتدي بهُداه.

فللقرآن الكريم أيضاً كتابٌ مطابقٌ له في (أمّ الكتاب):

﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا﴾

(١)- سورة يس، الآية١٢.

(٢)- سورة القدر، الآية٤.

وليس المقصود من (لَدَيْنا) البُعد المكاني إنّما في بُعد المكانة والمرتبة. ثم إنَّ القرآن الكريم:

﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

فقد تناول القرآن الكريم القيم العالية والمُثل العُليا، وهكذا يعلو من يتمسّك به، وهو معنى قوله تعالى: (لَعَلِيٌّ).

أمّا قوله: (حَكِيمٌ) فيعني الحِكمة، وهي تلك الكلمات السامية الالهية التي ترسم حياة الانسان ليصل الى أهدافه بأقرب طريق.

والانسان الذي لم يصل الى الحكمة في قراءة القرآن فهو كمن لم يقرأه، إذ قرأ الحروف وترك المعاني.



بصائر وسُنَن

كلّ كتاب ينزلُ من السماء لديه اصلٌ في (أمّ الكتاب) بدءاً من الكُتب السماوية ووصولاً الى كتاب كلّ فرد وأرزاقه وحياته وموته، فكلّ شيء أحصاه ربّنا في إمام مُبين.



افنضرب عنكم الذكر

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ ۝٥﴾.

* * *

من الحديث

عن أبي جعفر عليه السلام:

«المُسْرِفُوْنَ، هُمُ الّذِينَ يَسْتَحِلّونَ المَحارِمَ وَيَسْفِكُونَ الدِّماءَ»[1].

تفصيل القول

التعامل مع الغيب

يُلقي الشيطان الرجيم وساوس شتّى في قلوب الناس لكي

(١)- مجمع البيان، ج٣، ص٢٩٠.

يمنعهم من الايمان بالرسالات الالهية.

وهكذا فالايمان بالرسـالات الالهية ليست قضية سهلة، ذلك لأنّ الانسـان قد جُبِل على التعامـل مع عالَم الشـهود والتفاعل مع أحاسيسه الظاهرية، لكن للانسـان القُدرة على أن يرتفع الى التعامل مع عالَم الغيب.

وعلى الانسان أن يُثير في نفسه القُدرة على التعامل مع مرتكزات الفطرة والوجدان وإثـارة العقل لكي يتعامل مع الغيب.

» على الانسان أن يُثير في نفسه القُدرة على التعامل مع مرتكزات الفطرة والوجدان وإثارة العقل لكي يتعامل مع الغيب.

ففي التعامل مع الماضي أو المستقبل يستطيع الانسـان أن يُقرّب البعيد ويعيش الغيب، فالموت غيب وما بعده غيب أيضاً، وحينما نجد أنّ الشيطان يُلقي وساوسه فإنّه يُشكك الانسان بالغيب، ومن جملة تلك التشـكيكات هو قول البعض إذا كانت ذواتنا غير صالحة فلماذا بعث الرُسُل؟

يُجيبهم القـرآن الكريم أنّ الـذوات الغير صالحة لها فرصة التحوّل، فبصيص النور موجود عند الانسان، والانسان يستطيع أن يخرق الحُجُب بإرادته.

يقول الباري عزّ وجل:

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾

فإذا إبتعد الإنسـان عن الرب المتعال وأصبح مُسرفاً فذلك لا يعني تركه وعدم تذكيره بالله المتعال.

فرحمة الله بالانسان واسعة حتى وإن ابتعد الانسان عن الرب، إلّا أنّ الباري عزّ وجلّ يرأف به.

معنى الضرب

لــو تأمّلنا في كلمة الضرب نجــد أنّه الشيء الــذي فيه إثارةٌ وصوتٌ ونوعٌ من التأثــير، وهكذا يكون ضرب المثل بِلحاظ جانب الظهور فيه.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾

فالمقصود هو أنّ (الذِّكر) وارســال المذكّــر هو لكم، فنحن لا نصرف عنكم الذِّكْر الى أمة أخرى أو مكان آخر بسبب:

﴿أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾

باعتباركم أنكم قوم مسرفون، وباعتبار أنّ المُسرف بعيد عن الله المُتعال، وهو مُتَحَدٍّ لله المُتعال متوغّل في الظلمات.

إلّا أنّ الرب يُبيّن أنّ هؤلاء يســتحقّون الذِّكر ووجود الرسول لسببين:

الاوّل: لعلّهم يرجعوا الى رُشدهم ويتوبوا كما حدث ذلك مِراراً في التاريخ.

الثانــي: لإتمام الحجّة عــلى العباد وإســتحقاقهم للعذاب بعد وضوح كل شيء لهم، وهذا مُقتضى قاعدة اللطف الالهي.

ومن هنا نجد أنّ يونس بن متّى عوقب حين استعجل في الدعاء على قومه.

وهكذا شاءت رحمة الله الواسعة أن تَتمّ الحُجّة على العباد. ومن جهة ثانية فإنّ وجود الاسراف لا يدلّ على رضا الرب عن المسرِف كما لا يعني القنوط من رحمته تعالى.



بصائر وسُنَن

إبتعاد الانسان عن نهج الله بالإسراف لا يعني أنّ الرب المتعال يُبعد عنه الذِّكر، إنّما يذكِّرهم لسببين:

اولاً: لعلّهم يرجعوا الى رشدهم ويتوبوا كما حدث ذلك مراراً في التاريخ.

ثانياً: لإتمام الحجّة على العباد واستحقاقهم للعذاب بعد وضوح كل شيء لهم، وهذا مُقتضى قاعدة اللطف الالهي.



أنبياء في الأوّلين

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾.

***

من الحديث

عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال:

«الرَّسُولُ .. الَّذِي يَظْهَرُ لَهُ الْمَلَكُ فَيُكَلِّمُهُ،

والنَّبِيُّ .. هُوَ الَّذِي يَرَى فِي مَنَامِهِ،

ورُبَّمَا اجْتَمَعَتِ النُّبُوَّةُ والرِّسَالَةُ لِوَاحِدٍ،

والْمُحَدَّثُ .. الَّذِي يَسْمَعُ الصَّوْتَ ولَا يَرَى الصُّورَةَ»[1].

---

(١)- الكافي، ج١، ص١٧٧.

تفصيل القول

ولكـــي يُبرهن القرآن الكريم على حقيقـــة أنّ إسراف المُسرفين لا يمنع مـــن انذارهم يُذكّرنا بالتاريخ وكم مِـــنَ المُترفين كانوا في قمّة الحضارة إلّا أنّ الرب عزّ وجلّ أرســـل اليهم المُرسلين، فلا يُعذّب الله قوماً إلّا بعد أن يُتمّ عليهم الحُجّة بإرسال المُنذرين.

وهكذا فالرســـول كالطبيب والنـــاس كالمرضى، وتزداد فرص إبتعاث الأنبياء بالرســـالات عند إنحراف النـــاس واتّخاذهم شريعة الإسراف سبيلا.

هكذا بعث اللهّ الأنبياء الى الناس سابقاً، وهكذا مضت سنته في ارسالهم:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾.



بصائر وسُنَن

الرسول كالطبيب إنّما يزور المرضى، كذلك تزداد فرص إبتعاث الأنبياء بالرســـالات عند إنحراف الناس واتخاذهم شريعة الإسراف سبيلا.



كانوا به يستهزئون

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

***

من الحديث

عن أبي عبد الله عليه السلام حول نوح وقومه، قال:

«...فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِمْ تِسْعُمِائَةِ سَنَةٍ ولَمْ يُؤْمِنُوا هَمَّ أَنْ يَدْعُوَ عَلَيْهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ، فَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ ولا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً، فَأَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يَغْرِسَ النَّخْلَ، فَأَقْبَلَ يَغْرِسُ النَّخْلَ، فَكَانَ قَوْمُهُ يَمُرُّونَ بِهِ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُ ويَسْتَهْزِءُونَ بِهِ»[1].

---

(١)- بحار الأنوار، ج١١، ص٣١١.

تفصيل القول

لعلّ الاستهزاء أســـوء عادة إعتادت عليها الأمم الكافرة، لأنّه موغل في الصلف، والاستهزاء بالرسل عادةٌ مضت في الأوّلين، كما أنّ ابتعاث الرسل سنة إلهيّة ثابتة منذ القِدَم.

ولكن هل منع هذا الاستهزاء إستمرار سُنَّة الله في بعث الرسل أو في إهلاك المســتهزئين؟ كلّا.. لأنّ الله لا يضرّه كفر من كفر، كما لا ينفعه إيمان من آمن.

ولعلّ الآية تُشــير الى تواتر بعثة الانبياء، حيث إنَّ الناسَ كانوا يستهزئون بنبيٍ، ثمّ يبعث الله نبيّاً آخر فكانوا يستهزئون بالجميع.



بصائر وسُنَن

لعل الإستهزاء أســوء عادةٍ إعتادت عليها الأمم الكافرة، لأنه موغل في الصلف. والاستهزاء بالرسل عادةٌ مضت في الأوّلين، كما أنّ ابتعاث الرسل سنة إلهيّة ثابتة منذ القِدَم.



مضى مثلُ الاوّلين

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴿٨﴾﴾.

***

من الحديث

من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام قال:

«وَاعْلَمُوا - عِبَادَ اللَّهِ - أَنَّكُمْ ومَا أَنْتُمْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى سَبِيلِ مَنْ قَدْ مَضَى قَبْلَكُمْ، مِمَّنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَاراً، وأَعْمَرَ دِيَاراً، وأَبْعَدَ آثَاراً، أَصْبَحَتْ أَصْوَاتُهُمْ هَامِدَةً، ورِيَاحُهُمْ رَاكِدَةً، وأَجْسَادُهُمْ بَالِيَةً، ودِيَارُهُمْ خَالِيَةً، وآثَارُهُمْ عَافِيَةً، فَاسْتَبْدَلُوا بِالْقُصُورِ الْمُشَيَّدَةِ والنَّمَارِقِ الْمُمَهَّدَةِ، الصُّخُورَ والْأَحْجَارَ الْمُسَنَّدَةَ [الْمُسْنَدَةَ] والْقُبُورَ اللَّاطِئَةَ الْمُلْحَدَةَ»[1].

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٣٤٨.

تفصيل القول

مهما بلغ البشر من قوّتهم المادّية وحضارتهم لكنّهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام عذاب الله:

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنهُم بَطْشًا﴾

وهكذا على الانسان أن لا يغترَّ بما لديه من الامكانات المادّية أو القوّة الجسدية، لأنّ كل ذلك هو من الرب المُتعال.

﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾

فلسنا مبتورين من التاريخ، بل جئنا في سياق أجيال متلاحقة، وعلينا أن نستفيد من عِبَر التاريخ وكيف أنّ الرب المتعال أرسل لكلّ أمّة رسولاً ولم يمنع ذلك وجود المُسرفين في تلك الأمم، ومن هنا دحض القرآن وسوسة الشيطان الرجيم.



بصائر وسُنَن

مهما بلغ البشر من قوّتهم المادّية وحضارتهم الّا أنّهم لا يستطيعون أن يقفوا أمام عذاب الله.



خلقهنّ العزيزُ العليم

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾.

* * *

من الحديث

عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«إِنَّ اللَّـهَ عَزَّ وجَلَّ خَلَقَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ النَّارَ، وخَلَقَ الطَّاعَةَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْمَعْصِيَةَ، وخَلَقَ الرَّحْمَةَ قَبْلَ الْغَضَبِ، وخَلَقَ الْخَيْرَ قَبْلَ الشَّرِّ، وخَلَقَ الْأَرْضَ قَبْلَ السَّمَاءِ، وخَلَقَ الْحَيَاةَ قَبْلَ الْمَوْتِ، وخَلَقَ الشَّمْسَ قَبْلَ الْقَمَرِ، وخَلَقَ النُّورَ قَبْلَ الظُّلْمَةِ»[١].

---

(١)- الكافي، ج١٥، ص٣٤٨.

تفصيل القول

لعـــلّ أحدنا يركب الســـيارة آلاف المرّات لكنّـــه يغفل عن أنّ صانعهـــا خبيرٌ عليمٌ، وهكذا ننتقل بتفكيرنا من الشـــاهد الى الغائب، وهذا هو اســـلوب القرآن الكريم، حيث إنّه يســـتأدي ميثاق الانسان ويبلور فطرته ويستنطق ضميره ويستخرج مكنون عقله.

وكما النور حيث لا يُغني وجوده عن الإبصار، هكذا الآيات لا تكفي من دون وجود قابلية للاستفادة منها، وهكذا كلّما كان الوجدان أكثر تجلياً كلّما إستطاع الانسان أن يعرف الحقائق اكثر.

ومـــن هنا كانت مهمّـــة الانبياء إثارة دفائن العقول ليســـتنطق الانسان نفســـه قبل أن تســـتنطقه الآيات، ولينتقل الى عالَم الغيب الى درجة رؤيته للحقائق الغيبية.

نحن رأينا الشـــمس ولكن كم فكّرنـــا في مدبّرها ومن يضبط حركتها، ومِثل الشمس القمر والنجوم والخليقة كلّها آيات يمكننا أن ننتقل الى معرفة كنهها، لكنّ العقبة التي تحول دون ذلك هو الانســـان ذاته، إذ إنّه لا يســـتلذّ بالحقائق، أو يبحث عن الحقائق الغريبة في حين أنّه يستطيع بلورة معرفته من خلال الحقائق الشهودية الواضحة وجعل الحياة كلّها مدرسة للتكامل.

لذلك نجد أنّ النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يقوم في الليل وينظر الى النجوم ويتفكّر في خلق السماوات والارض وهو يقول: ﴿رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ﴾[1].

(١)- سورة آل عمران، الآية١٩١.

وحينما يزداد الانســـان معرفة بدقّة الخلق تزداد معرفته بعظمة الخالق، وهذا ما نحتاج اليه:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾

مَــنْ خلقها؟ ومَنْ نظّمها؟ ومَنْ دبّرهــا؟ وهيمن عليها؟ فمن يفكِّر في ذلك:

﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾

لماذا؟

لأنّــه أولاً: مقتدر وقوّته قــد فُعّلت، فهو عزيز.

وثانياً: لأنّ قدرته موجّهة فهو إذن عليم.

» القرآن الكريم، كذلك وصايا النبي وأهل بيته عليهم السلام، تحثّ الانسان على زيادة عقله، بمعنى أنها تجعل الانسان يعيش الواقع كما هو وليس الجُزئيات فحسب.

بين العلم والعقل

كثير مــن الناس يتعاملون مــع العلم ولا يتعاملون مع العقل، فيهتمّ بالجُزئيات والمصاديق لكنّه يجهل الكليّات والقواعد العامة.

العقــل يعني رؤية الأطر العامّة وليــس رؤية الموضوع الجُزئي فقط.

وهكذا وصف ضِرار الامــام أمير المؤمنين عليه السلام حين طلب منه معاوية ذلك، فقــال: «**كَانَ واللَّهِ بَعِيدَ الْمَدَى، شَــدِيدَ الْقُوَى، يَقُولُ فَصْلًا، ويَحْكُمُ عَدْلًا، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِــنْ جَوَانِبِهِ، وتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ عَنْ**

لِسَانِهِ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وزَهْرَتِهَا، ويَأْنَسُ بِاللَّيْلِ وظُلْمَتِه»[1].

فالامام كان بعيد المدى، ينظر الى المستقبل البعيد كما ينظر الى الحاضر، وهذا هو معنى العقل والحِكمة.

والقرآن الكريم، كذلك وصايا النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، تحثّ الانسان على زيادة عقله، بمعنى أنها تجعل الانسان يعيش الواقع كما هو وليس الجُزئيات فحسب، ومِن هنا يجعلنا نُفكّر في خلق السماوات والارض.

ونحن أيضاً علينا أن نتساءَل كلّ يوم ذات السؤال ونُجيب عليه، لأنّ الانسان يصِل في كلّ مرة الى بعض أبعاد الحقيقة، وتتكشّف أمامه آفاق معرفية جديدة من لطائف خلق الله.



بصائر وسُنَن

١ - حينما يزداد الإنسان معرفةً بدقة خلق السماوات والأرض وسائر المخلوقات، تزداد معرفته بعظمة الخالق.

٢ - الكثير من الناس يتعاملون مع العلم ولا يتعاملون مع العقل، فيهتمون بالجزئيات والمصاديق ولكنهم يجهلون الكليات والقواعد العامة في الخليقة.

(١)- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٨، ص٢٢٥.



جعل لكم الأرض مهداً

﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾.

***

من الحديث

روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام حول الأرض أنَّه قال:

«جعَلَهَا مُلَائِمَةً لِطَبَائِعِكُمْ، مُوَافِقَةً لِأَجْسَادِكُمْ، لَمْ يَجْعَلْهَا شَدِيدَةَ الْحَمْيِ والْحَرَارَةِ فَتُحْرِقَكُمْ، ولَا شَدِيدَةَ الْبَرْدِ فَتُجْمِدَكُمْ، ولَا شَدِيدَةَ طِيبِ الرِّيحِ فَتَصْدَعَ هَامَاتِكُمْ، ولَا شَدِيدَةَ النَّتْنِ فَتُعْطِبَكُمْ، ولَا شَدِيدَةَ اللِّينِ كَالْمَاءِ فَتُغْرِقَكُمْ، ولَا شَدِيدَةَ الصَّلَابَةِ فَتَمْتَنِعَ عَلَيْكُمْ فِي دُورِكُمْ وأَبْنِيَتِكُمْ وقُبُورِ مَوْتَاكُمْ، ولَكِنَّهُ عَزَّ وجَلَّ جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْمَتَانَةِ مَا تَنْتَفِعُونَ بِهِ وتَتَمَاسَكُونَ وتَتَمَاسَكُ عَلَيْهَا أَبْدَانُكُمْ وبُنْيَانُكُمْ، وجَعَلَ فِيهَا مَا تَنْقَادُ بِهِ لِدُورِكُمْ وقُبُورِكُمْ وكَثِيرٍ

مِنْ مَنَافِعِكُمْ، فَلِذَلِكَ جَعَلَ الْأَرْضَ فِرَاشاً لَكُم»[1].

تفصيل القول

خلق الله تعالى الأرض وجعل فيها شروط الحياة دون سائر الكواكب في المنظومة الشمسية:

﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾

ففي الأرض وُضعت السُنن المُختلفة التي تُمكّن البشر من العيش فيها.

وبالنظر الى سياق الآية وإرتباطها بخلق السماوات والارض نفهم بأنّ كون الارض مهداً للبشر مُرتبط بأصل خلقتها، حيث جعل فيها الكثير من الحقائق المناسبة للعيش، ومنها جعل السُبُل:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾

والسُبل بمعنى الطُرق حيثُ إنّ الله جعل في الأرض طُرقاً من الصحاري والبراري، وحتّى السماء جعل فيها طُرقاً يعرفها العلماء.

وفي باطن الارض أيضاً طُرقٌ تنقل المياه من مناطق بعيدة.

كل ذلك:

﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

لكن الهداية الى ماذا؟

(١) – التوحيد (للصدوق)، ص٤٠٤.

اولاً: نهتدي الى الله الذي خلقها، ومن ثمّ نهتدي الى الحياة.

ثانياً: نهتدي الى هذه السُبُل ونستفيد منها في سعادتنا.



بصائر وسُنَن

جعل الله السُبُل في الأرض لكي يهتدي بها الإنسان إلى خالقها، ومن ثم يهتدي إلى مناهج السعادة في الحياة.



كذلك تُخرجون

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

* * *

من الحديث

في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال:

«**فَهِيَ الْأَنْهَارُ وَالْعُيُونُ وَالْآبَار**»[1].

تفصيل القول

لأنّ القرآن الكريم يُذكّرنا بالحقائق الظاهرة ويُثير فينا دفائن العقول، لذلك يحدّثنا عن التحوّلات العُظمى التي نعيشها، وكيف أنّ

(١) - بحار الأنوار، ج٥٦، ص٣٧٣.

الأرض التي تبدو مَيْتة تُحيى وتُنشر، وكيف يخرج الانسان بعد موته.

عدّة بصائر نتوقّف عندها في سـياق الحديث عن الآية القرآنية المُباركة:

البصيرة الأولى: للبـشر موقفان تجاه النعمـة، يتمثّل أحدهما بالاسراف الذي ذُكر في الآية الخامسـة من هذه السـورة المباركة، أمّا الموقف الثاني فهو الشكر لأنعم الله تعالى.

فوظيفة الانسـان تجاه النعمة شـكرها، ويعني الشـكر حالة وسطية بين البطر والكُفر، فعدم الاهتمام بالنعمة كُفر واتّخاذها وسيلة للاسـتعلاء بَطَر، وهكـذا قد يزلّ المـرء عن الطريق بسـبب النعمة كالشباب والغنى.

ويكون الشكر بمعرفة ارتباط النعمة بالله المُتعال وكون الانسان لا يملكها بذاته.

فحين يشرب الانسـان الماء قـد لا يعي أنّ المـاء قطع مراحل عديدة الى حين وصوله اليه، فالرب المُتعال أمَرَ الشمس أن تشرق على البحار، وأمَرَ الرياح أن تحمل السُحُب، ورياحاً أخرى أمرها أن تعصر السحب، وعشرات المراحل الأخرى التي قطعها الماء ليصل للانسان.

وهكذا ننتقل ممّا هو مُشـاهد من النعم الى ما وراءها لنسـتفيد منها ونشكرها.

البصيرة الثانية: في الامثلة القرآنية لطائف ينبغي الالتفات اليها، ففي هذه الآية المُباركة يضرب لنـا ربّنا مثل البلد الميّت الذي لا حسّ فيه ولا محسـوس، ولا نشـاط فيه ولا حركة، ولا دابّة تدبّ عليه ولا

طائراً يطير فيه، وبعد مدّة يتحوّل ذلك المكان الى حيث الحياة والحركة والحيوية بسـبب نزول الماء، وبالتأمّل في ذلك نعرف أنّ الموتى الذين لا حسّ لهم أيضاً سيُنشرون، يقول تعالى: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[1].

وحسـب الأحاديث الشريفة ستمطر السماء أربعين يوماً لتعود تلك الاجسـام البالية والذرات المتناثرة لتجتمـع بعضها الى بعض، ولتكون قبورهم كأرحام أمّهاتهم، وليُنشر الناس الى ربّهم، وذلك يوم النشور.

ماءً بقدرٍ

البصيرة الثالثة: قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾

علينا أن نتأمّل ملياً في قوله تعالى (بِقَدَر) ونفهمها كإشارة لفهم الحقيقة.

ففي عالم اليوم حينما برزت مشـكلة الاحتبـاس الحراري بدأ بعض النظام في الارض بالاختلال بما كسبت أيدي الناس، فاصبحنا ننظر الى بعـض المناطق ينزل فيها المطر بشـكل كثيف وفي قبال ذلك يحكم الجفاف مناطق أخرى، وأصبح العالَم يدقّ ناقوس خطر المجاعة الذي يهدد اكثر من ٦٠ مليون انسـان في القـرن الافريقي، كلّ ذلك بسبب الجفاف.

هذا كله بسبب إفساد الإنسـان في الأرض وإساءَته الى البيئة،

---

(١)- سورة فاطر، الآية٩.

بينما ربّنا المتعال يقدِّر نزول الماء من السماء بقدر، حيث يُزجي بالسُحُب من مناطق بعيدة الى بقاع الارض المختلفة ويسقيها، وفي ذلك دليلٌ على قدرته وهيمنته.

ومعنى (نَزَّلَ) أي أنزله بتدرُّج.

﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾

البصيرة الرابعة: ماذا يعني البلد؟

يقولُ ربّنا المُتعال في القرآن الكريم: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[1].

وكذلك يقول تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾[2].

لا يُسمّى البناء بلداً، إنّما الانسان هو البلد، لأنّ البناء يخدم الانسان ولكن لأنّ جزءاً كبيراً من حياة الانسان مُرتبط بالاراضي المُحيطة والزراعة فيها، يُسمّى بلداً لذلك.

البصيرة الخامسة: إرادة الرب المُتعال تبقى حاكمة على الخليقة، ورغم إتيان الانسان بالأسباب الظاهرية إلّا أنّ حقيقة التأثير تبقى بيد الرب المتعال وهو مسبّب الاسباب، ولذلك يبقى البشر عاجزاً عن إدراك بعض الحقائق وتفسيرها.

يقول تعالى: (فَأَنْشَرْنَا) فربّنا هو الذي أنشر، فهو أمر الماء أن يُحيي البلدة الميتة.

---

(١)- سورة الأعراف، الآية٥٨.

(٢)- سورة البلد، الآية١-٣.

﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

وذلك في يوم الحشر الاكبر حيث يخرج الناس سِراعاً كأنّهم الى نُصُبٍ يوفضون، فمن حقيقة إحياء الارض بعد موتها يوصلنا القرآن الكريم الى حقيقة البعث الكبرى، لتتحوّل الظاهرة الى مدرسة نتسامى من خلالها في مدارج الكمال والرِفعة.



بصائر وسُنَن

١- وظيفة الانسان تجاه النعمة شكرها، ويعني الشكر حالة وسطية بين البطر والكُفر، فعدم الاهتمام بالنعمة كُفر، واتّخاذها وسيلة للاستعلاء بَطَر، وهكذا قد يزلّ المرء عن الطريق بسبب النعمة كالشباب والغنى.

٢- إرادة الرب المُتعال تبقى حاكمة على الخليقة، ورغم إتيان الانسان بالأسباب الظاهرية إلّا أنّ حقيقة التأثير تبقى بيد الرب المتعال وهو مسبّب الاسباب، ولذلك يبقى البشر عاجزاً عن إدراك بعض الحقائق وتفسيرها.



خَلَق الأزواج كلّها

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢﴾.

* * *

من الحديث

روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«إِنَّ مِنْ سَعَادَةِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ: أَنْ يُشْبِهَهُ وَلَدُهُ، والْمَرْأَةُ الْجَمْلَاءُ ذَاتُ دِينٍ، والْمَرْكَبُ الْهَنِيءُ، والْمَسْكَنُ الْوَاسِعُ»[1].

تفصيل القول

يُذكّرنا القرآن الكريم المرّة بعد الأخرى بآيات الله تعالى في الخلق، لا لكي نؤمن بها فحسب بل لنتدرّج بها في معرفة الله المُتعال،

(١) - قرب الإسناد، ص٧٧.

حتّى يأتينا اليقين. يقول الباري عزّ وجل: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾[1].

في هذه الآية يُبيّن لنا ربّنا آية الزوجية وما فيها من آية المصنوعية، إذ إنّ احتيـــاج المخلوق لمثيله دليلٌ على عدم الذاتية فيه، بدءاً من النملة المتناهية في الصِغر الى اكبر مجرّة، فكلّها مُعتمدة على مخلوق مثلها:

﴿وَالَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾

وحـــين نُنعم النظر نجــد النقص موجوداً في الموجودات، فالمــرأة تُكمّـــل الرجل وكذلك العكـــس، وهكـــذا غير البـــشر مـــن الحيوانات والنباتـــات بعضهـــا يُكمّل بعضـــاً، وحتّى الليل والنهار، والشتاء والصيف يُكمّل بعضه بعضاً.

» إنّ احتياج المخلوق لمثيله دليلٌ على عدم الذاتية فيه، بدءاً من النملة المتناهية في الصِغر الى اكبر مجرّة، فكلّها مُعتمدة على مخلوق مثلها.

ولذلك يقول ربّنا في سورة يس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَـــقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ ومِنْ أَنفُسِهِمْ ومِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

تكامل الخليقة

الخليقـــة جُعلت بحيث تتكامل بعضها مـــع بعض، ومن ذلك أنّ البـــاري عزّ وجل جعل الفُلك تجـــري في البحر، فكم هي العوامل التي ينبغي أن تتوفّر من أجل ذلك؟ فالنجوم تهدي، والرياح تســـوق، والجاذبية تجعل لها مهداً، وهكذا مُختلف العوامل.

(١)- سورة الحجر، الآية٩٩.
(٢)- سورة يس، الآية٣٦.

والى يومنا هذا تُعدّ السُفن أهمّ وسيلة لنقل البضائع، وربما لهذا السبب ذُكِرت قبل الأنعام في الآية الكريمة.

والانسان بدوره يتكامل مع السفينة وهي تتكامل معه حيث يحملها الانسان في الصُنع وهي تحمله في الوصول الى المقاصد البعيدة:

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾

أمّا الحيوانات فهي أيضاً تتكامل مع الانسان، حيث يخدم أحدهما الآخر، ولكن المستفيد الأخير هو الإنسان.



بصائر وسُنَن

الخليقة جُعلت بحيث تتكامل بعضها مع بعض، ومن ذلك أنّ الباري عزّ وجل جعل الفُلك تجري في البحر، فكم هي العوامل التي ينبغي توفرها لذلك؟ فالنجوم تهدي، والرياح تسوق، والجاذبية تجعل لها مهداً، وهكذا مُختلف العوامل.



لتستووا على ظهوره

﴿لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا ومَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

***

من الحديث

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل للشكر حد إذا فعله العبد كان شاكرا؟ قال: «نَعَمْ» قلتُ: مَا هُو؟ قَالَ:

«يَحْمَدُ اللَّهَ عَلَى كُلِّ نِعْمَةٍ عَلَيْهِ فِي أَهْلٍ ومَالٍ، وإِنْ كَانَ فِيمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ حَقٌّ أَدَّاهُ، ومِنْهُ قَوْلُهُ جَلَّ وعَزَّ: ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِين﴾»[1].

(١) – الكافي، ج٢، ص٩٦.

تفصيل القول

بعد أن ذكر القرآن الكريـــم حقيقة التكامل في الخلق، وجعل لذلك مثـــلاً في الفُلك والانعام، بيّن في هـــذه الآية الهدف من ذلك، فقال:

﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾

والضمـــير في ظهوره راجع الى (ما تركبون) في الآية الســـابقة، ولعلّه يشمل ظهر الدابّة وظهر السفينة أيضاً.

واستخدام القرآن الكريم لكلمة (لتستووا):

اولاً: للتدليل على أنّ الله ســـخّر الفلك والأنعام للإنسان حتى يستقرّ على ظهورها دون وجل من تمرّدها عليه.

ثانيا: أنّ علينا أن نســـتقرّ عليها ونتمكّن منها دون أن تجمح أو أن تضطرب، وهذا يعني أنَّ على الانسان أن يوفّر أسباب الاستقرار في وسائل النقل من أجل السلامة.

نعمة ربكم

﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْه﴾

ذكر القرآن الكريم كلمة الاســـتواء مرتين للتدليل على أنّ بعد الاستواء أيضاً على الانسان أن لا يغترّ بالمركوب، وإنّما يلتفت الى كون ذلك نعمة من الباري عزّ وجل عليه:

﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾

فنحن لســنا بمستوى أن نســخّرها بل الرب المتعال هو الذي سخّر لنا هذا.

وهكذا فنظام التكامل دليل على قــوّة ربّنا العظيم الذي جعل النــاس بعضهم يحتاجون الى بعض وهو غنــي عنهم، ولذلك جاءت كلمة التسبيح هنا لنُنزّهه عن النقص الكائن في المخلوق.



بصائر وسُنَن

إنّ الله سخّر الفلك والأنعام للإنسان حتى يستقرّ على ظهورها دون وجل من تمرّدها عليه، وهذا يعني أنّ على الانسان أن يوفّر أسباب الاستقرار في وسائل النقل من أجل السلامة.



الى ربّنا لمنقلبون

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ١٤﴾.

***

من الحديث

عن جابر الجعفي قال: كان علي عليه السلام إذا سار إلى قتالٍ ذكر اسم الله تعالى حين يركب كان يقول:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ عَلَيْنَا وفَضْلِهِ الْعَظِيم، سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ»[1].

تفصيل القول

ثم انتقل السياق القرآني من الدنيا الى الآخرة وكيف أنّ على الانسان عدم ترك واجباته الأخروية في حين استفادته من النعم

(١)- بحار الأنوار، ج٣٢، ص٤٦٠.

الالهية، إذ عليه أن يقول:

﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾

التعبـــير القرآني دقيق جـــداً، فحين تنقلب الطائـــرة أو تنكفئ السفينة فمصيرها بيد الله والى رضوان الله، ومعرفة تلك الحقيقة تُوجِد توازناً في شخصية الانسان حيث إنّه – ومع توفيره لأسباب الأمان – يطمئن الى أنّ مجاري الامور بيد الله، والى الله تُرجع الامور.



بصائر وسُنَن

حين يستفيد الإنسان من النعم الإلهية المرتبطة بالدنيا، عليه أن لا ينسى الآخرة وواجباته الأخروية وأنَّ مصيره إلى الله تعالى.



لكفورٌ مبين

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام الصادق عليه السلام:

«**إِنَّ الشِّرْكَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ**»[1].

تفصيل القول

الشرك بالله العظيم يُعدّ من أخطر ما يُصاب به الانسان، وهو ظلم عظيم لا يُغفر وليس كغيره من الذنوب.

(١)- معاني الأخبار، ص٣٧٩.

لكن ما هو الشرك، وما هي أسبابه؟

يبدو أنّ هناك أسباباً شتّى للشرك، أو بتعبير آخر: مِن المُمكن أن تتعقّد كلّ سـلبية لتتحوّل الى شُعبة من شُعب الشِرك، فقد يكون حُبّ المال طريقاً للشرك، أو قد يكون الشرك نابعاً من الحسـد أو غير ذلك، ولكن لعلّ أخطر أنواع الشرك هو ما يتصل بجهل الإنسان نفسه وهو أكبر الحُجُب عند الانسـان، حيث ينتج عن الجهل كفر الانسـان بالله تعالى.

فهـو مع رؤيته لآيات الله إلّا أنّه لا يذعن للحق، فتراه يُجادل في آيات الله، كما نعته القرآن الكريم فقال: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾[1].

أو أن يحـاول إلصاق نفسـه بالربوبية، من أجل عـدم التقيّد بالتشريعات الالهية.

طريق الشرك

إنّ تمرّد الانسان على الله سـبحانه وعدم إستجابته لنداء الرب المُتعال ينتهي به الى الشرك، وهو ما عبّر عنه القرآن في هذه الآية بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾.

وهكذا جُعل الكفر في قِبال الشكر في قوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2].

ذلك لأنّ عدم الشكر يؤدي به الى الشرك، وهكذا يُعدّ هذا النوع

(١)- سورة الكهف، الآية٥٤.

(٢)- سورة الانسان، الآية٣.

من الشرك من أخطر أنواعه حيث يوصِل الانســان الى إدّعاء الربوبية مع علمه بعجزه وضَعفه.

طرح الشبهات

وفي هذه الآية يَذكر ربّنا بعض الشبهات التي تؤدي الى الشرك، فيقول:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾

لو نظرنا الى شُبهات الفلاسفة نجد أنّها تتشابه في مؤداها، فهي تجتمع في إلصــاق صفة الربوبيــة بالبشر وهو ما صرّح به بعضهم. فنجد – مثلاً – القائلين بالحلول يقسِّــمون الله جزءَين: أحدهما في ذاته والآخر في عباده – تعالى الله عــن ذلك علواً كبيراً – أو ليس الولد إمتداداً لوالده، حيث ينتقل جزءٌ من الوالد فيه حتى يصبــح بضعة منه؟ وهكــذا زعموا أنّ جزءاً من الله ينتقل الى بعض عباده فيصبح نصف إله ويكتسب قداسة بين سائر عباده.

» إنَّ كل من خلقه الله تعالى هو عبدٌ لله ونسبته الى الله نسبة المخلوق الى خالقه، وإنّ خلقهم ليس من ذات الخالق وإنما يبدعهم بأمره لا من شيء.

ولم يفقه هــؤلاء أنَّ كل من خلقه الله تعالى هو عبدٌ لله ونسبته الى الله نســبة المخلوق الى خالقه، وأنّ خلقهم ليس من ذات الخالق وإنما يبدعهــم بأمره لا من شيء، وأنَّ جميع المخلوقين أمامه سواء من حيث الذات ومقام العبوديّة.

جاء في الحديث الشريف عن أبي جعفــر عليه السلام أنّه قال: «**إِنَّ اللَّهَ خِلْوٌ مِــنْ خَلْقِهِ وخَلْقَهُ خِلْوٌ مِنْهُ وكُلُّ مَا وَقَعَ عَلَيْهِ اسْــمُ شَــيْءٍ فَهُوَ**

مَخْلُوقٌ مَا خَلَا اللَّهَ»[1].

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾

فمشكلة الانســان إذن هو أنّه ليس شاكراً لأنعم الرب المُتعال عليه، وهو بذلك يحاول أن يوصل نفسه الى مقام الرب.

ومعنى كون الانســان كفوراً أنّه لا يريــد أن يؤدّي حقّ الرب، فيبحث عن طريقة ليدّعــي بها الربوبية، أو أن يعتقد بالاصنام التي لا تضرّ ولا تنفع.

فحالــة كفران النعم عند الانســان تؤدي بــه الى عدم الالتزام بشريعة الله، وتمرّد الانسان هذا هو الذي يجعله مُشركاً.

وبالمقابل فإنّ الانســان المؤمن يعيش حالة الاطمئنان والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ.



بصائر وسُنَن

معنى أنّ الانسان كفور أنّه لا يريد أن يؤدّي حقّ الرب، فيبحث عن طريقــة يدّعي بها الربوبية، أو أن يعتقد بالاصنام التي لا تضرّ ولا تنفع، وبذلك يصبح مشركاً.

(١)- الكافي، ج١، ص٨٢.



إتخذ البنات؟!

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ ﴿١٦﴾.

* * *

تفصيل القول

بعد أن ذكر ربّنا المُتعال خطر الشرك الذي يحرف مسيرة البشر يُبيّن بعض تطبيقاته، ومن ذلك إعتقاد المشركين أنّ لله البنات ولهُم البنون، يقول تعالى:

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾

تُرى لماذا اعتقد المشركون ذلك؟

سببُ ذلك تصوّرهم أنّ الربّ متكبّر قويٌ جبار من غير أن يلتفتوا الى رحمانية الباري عزّ وجلّ، ومن هُنا وبوسوسة شيطانية جعلوا لله تعالى البنات لطبيعة رقّة المرأة، وزعموا أنّهم يتوسّلون بهنّ

للخلاص من غضب الرب. ومن ذات المنطلـق إعتقدوا أنّ الملائكة أيضاً من الإناث. يقـول تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَـةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ﴾[1].

بينما المنطق القرآني يؤكِّد على أنّ الخلاص من غضب الله يكون بالالتجـاء اليه تعالى، فبدل البحث عن آلهة مُزيّفة لأجل التوسّـل بها علينا الاعتقاد بالخالق الرحمن الرحيم للنجاة من العذاب الأليم. يقول تعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[2].

لكنّ المشركين - وبسـبب إنحرافهم عن الصراط المسـتقيم - باتوا يؤمنون ببعض الخرافات بدل الاعتقاد بالرب المُتعال.



بصائر وسُنَن

تصـوَّر المشركون أنّ الربّ متكبّر قويٌ جبار من غير أن يلتفتوا الى رحمانية الباري عزّ وجلّ، ومن هُنا وبوسوسـة شيطانية جعلوا لله تعالى البنات لطبيعة رقّة المرأة، وزعموا أنّهم يتوسّـلون بهنّ للخلاص من غضب الـرب. ومن ذات المنطلق إعتقـدوا أنّ الملائكة أيضاً من الإناث.

(١)- سورة الزخرف، الآية١٩.

(٢)- سورة الذاريات، الآية٥٠.



وهو كظيم

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

***

تفصيل القول

غريب أمر المشركين، فهم لا يفقهون ما يقولون، ولذلك تراهم يتناقضون في أقوالهم وسلوكهم. فهم جعلوا لله البنات وزعموا أن الله تعالى إتخذ البنات وأنّ الملائكة إناثٌ - كما سنقرأ في الآيات القادمة - بينما هم يعتبرون البنت عاراً وذلة ومنقصة:

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾

فزعم بأنّ الله اتخذ بنات وأنّ ملائكته من الإناث.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾

مكفهِّراً من الغضب وجهه، كاظماً غيظه، يكاد يتميّز من الغيظ، بسبب إعتقاده السخيف بأنّ البنت لا تستحق الحياة، وهي سبب المنقصة والعار للرجال. هكذا إعتقدوا الأنثى نقطة سوداء في حياتهم، بينما زعموا أنّ الرب المتعال إتخذ البنات تعالى الله عما يصفون.



بصائر وسُننَن

يتناقض المشركون في مزاعمهم وسلوكهم، حيث يرون البنت عاراً ونقطة سوداء في حياتهم وأنها لا تستحق الحياة في الوقت الذي يزعمون أنّ الله اتخذ البنات وجعل الملائكة إناثاً.



يُنشَّؤا في الحِليَة

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾.

***

من الحديث

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: في رسالة أمير المؤمنين عليه السلام إلى الحسن عليه السلام:

«لَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنَ الْأَمْرِ مَا يُجَاوِزُ نَفْسَهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ أَنْعَمُ لِحَالِهَا وأَرْخَى لِبَالِهَا وأَدْوَمُ لِجَمَالِهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ ولَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَة»[1].

تفصيل القول

البنت التي تكون نشأتها ونموّها في الحِلية – أي الزينة – وتعيش

(١)- الكافي، ج٥، ص٥١٠.

النعومة والرقّة، هل هي قادرة على القيام بما تقوم به الملائكة؟ كلّا. ولو اتخذ اللهّ بنات لجعلهن في رياض الجنان يمرحن، ولم يجعلهنّ يمارسن أمور الحياة، يقول تعالى:

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيرُ مُبِينٍ﴾

ثم إنّ البنت – بسبب فرط عاطفتها أو لحيائها – غير قادرة على الخصام والجدال كما الرجل، لأنها عادة تفصح عن كل ما يجيش في صدرها ولا تكتم شيئاً في العادة عن أحد.



بصائر وسُنَن

البنت التي تكون نشأتها ونموّها في الحلية والزينة وتعيش النعومة والرقّة، غير قادرة على القيام بما تقوم به الملائكة، بل – لفرط عاطفتها أو لحيائها – لا تستطيع الخصام والجدال كما الرجل.



سَتُكتب شهادتهم

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

***

تفصيل القول

ظاهر القرآن حُكم وباطِنه عِلم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، وحين نتدبَّر في هذه الآية المباركة نجد أنّ الحديث في ظاهرها عن خُرافة أطلقها الجاهليون حيث قالوا: إنّ الملائكة بنات الرحمن:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾

ولكنّ عمق الآية يشير الى شروط الالتزام الديني، وضرورة كونه نابعاً مِن حُجّة بالغة وليس مبنيّاً على الظنون والأوهام.

الدين فطرة الله

فالديـن فطـرة عميقة الجـذور عند الانسـان، لأنّ الله سـبحانه وتعـالى أودع فيـه فطـرة الايـمان مُنذ عالم الـذر حيث قـال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّـكَ مِـنْ بَـنِى آدَمَ مِـنْ ظُهُورِهِـمْ ذُرِّيَّتَهُـمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِرَبِّكُـمْ قالُـوا بَلى شَـهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَـوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّـا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِـينَ﴾[1].

لكنّ الاشكال هو في من يدّعون العلم بالدين وهُم غير مؤهّلين لذلـك، مِن علماء السـوء الذين يُحرّفون مسـيرة البشر. وفي معـرض ردّ القرآن الكريم على اولئك يذكّرنا بعدّة بصائر:

» الدين فطرة عميقة الجذور عنـد الانسـان، لكـنّ الاشـكال هـو في مـن يدّعـون العلـم بالديـن وهُـم غـير مؤهّلـين لذلك، مِن علماء السوء الذين يُحرّفـون مسيرة البـشر.

لا قيمة لكلامٍ بغير حجة

اولاً: على الانسـان أن يتحدّث بشـهادة، أي أن يكـون لديـه علم حقيقي بـما يزعم، تماماً كما يشـهد شـيئاً أمامه، أو يصل الى الحقيقة بعقله بوضوح كامل. وما جلوس التشهّد في الصلاة إلّا محاولة للإرتقاء بالنفس الى مرحلة الشهادة، حتّى تتجاوز معرفتنا بالله من مرحلة القول الظاهـري الى رؤية الفؤاد، ولذلك نجد ربّنا يُعاتب المُدّعين تلك الخرافة الجاهلية بأنّهم لم يستندوا الى حُجّة في قولهم:

﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾

فهل رأوا الملائكة؟ وهل شهدوا خلقهم وأنّ الله خلقهم إناثاً؟

---

(١)- سورة الأعراف، الآية١٧٢.

فاذا لم يشهدوا ذلك فليكفّوا عن الكلام، لأنّ الزعم غير المستند الى حجة بالغة لا قيمة له.

ومن هنا كان على العلماء أيضاً وعلى كل أصحاب التأثير على المجتمع أن لا ينطقوا بما ليس لهم به علم، كما يُعلّمنا الامام زين العابدين عليه السلام في دعائه حيث قال: «**أَوْ نَقُولَ فِي الْعِلْمِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**»[1].

وهذا الكلام الوجداني ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ يُحدث إنتفاضة في وجدانهم ويُثير فطرتهم.

كلّ الإدعاءات تُكتب

ثانياً: كلّ كلمة ينطق بها الانسان تُكتب لتكون شهادة عليه يوم القيامة:

﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾

ليس فقط تُكتب بل ويُسألون عنها يوم القيامة.

» إستخدم القرآن الكريم كلمة (الرحمن) ليُبيّن أنّ رحمة الخالق بالعِباد أكثر من رحمة خلقه بأنفسهم، وحتّى أكثر من الملائكة.

عبادُ الرحمن

وحين نتأمل في كلمة (الرحمن) التي جاءت في الآية الكريمة نتبصّر بعض اللطائف القرآنية، إذ إنَّ السياق القرآني جاء بالكلمة في معرض ذكره لاعتقاد المشركين بأنّ الملائكة إناثٌ إشارة الى جانب الرقّة والرحمة فيهم، ومن جهة أخرى كان تصوّرهم عن الخالق منحصراً في جانب القوّة والعِزّة والجبروت فقط، لذلك إستخدم القرآن الكريم كلمة (الرحمن) ليُبيّن أنّ رحمة الخالق بالعِباد أكثر

(١)- الصحيفة السجادية، ص٥٦.

مـن رحمة خلقـه بأنفسـهم، وحتّى أكثـر من الملائكـة. وأيضـاً لتثبيت جانـب الرحمة عنـد الخالق المُتعـال لنسـف التوَهّم الخاطـئ والناقص عـن الاله.



بصائر وسُنَن

على الانسان أن يتحدّث بشهادة، أي أن يكون لديه علم حقيقي بما يزعم، تماماً كما يشهد شيئاً أمامه، أو يصل اليه بعقله بوضوح كامل، وهذه هي معنى الشهادة.



ما لهم بذلك من علم

﴿وَقَالُواْ لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ۝٢٠﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قال:

«**الْقَدَرِيَّةُ مَجُوسُ أُمَّتِي**»[1].

تفصيل القول

طُرق الشيطان لغواية الانســان مُختلفة، ومن تلك الطرق التي جعلها المشركون مُسوِّغاً لاعتقادهم الباطل هو تبريرهم بقولهم:

(١)- بحار الأنوار، ج٥، ص٦.

﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾

فقد زعموا بأنّ رحمة الله الواسعة تأبى أن يترك العِباد في ضلالة، فلو أراد الله أن يمنعهم عن الشرك وعن عبادة غيره لمنعهم عن ذلك. والواقع إنّ ربّنا تعالى وفّر أسباب الهداية لهم، وأخذ عليهم الميثاق في عالم الذر، وأودع المعرفة في قلوبهم، ووهبهم العقل، وبعث اليهم الرسل، وأنزل اليهم الآيات، وهُم بعد كلّ ذلك لم يستجيبوا، لذلك يدحض القرآن الكريم حجّتهم فيقول:

﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

قلب الانسان كالوعاء، وكما أن الوعاء لا يبقى فارغاً حتّى لو سَكبت منه الماء لأنَّ الهواء يحلّ محلّه، كذلك القلب لو لم يتنوّر بالعلم تحلّ محلّه الوساوس والظنون، فتراه يختلق شيئاً ليحلّ محلّ العلم، وهو معنى الخرص.

» في واقعنا اليوم كما في كلّ زمان نجد اولئك الذين يستغنون عن العلماء الصادقين غروراً بما لديهم من معلومات ضئيلة.

وبتعبير آخر: إنّ ما يعتقدون به هو من نتاج أذهانهم وليس من الحقيقة بشيء.

خرّاصون جدد

وفي واقعنا اليوم كما في كلّ زمان نجد اولئك الذين يستغنون عن العلماء الصادقين غروراً بما لديهم من معلومات ضئيلة.

ففي حين يلجأون الى المتخصصين في كل علم وفن، إلّا أنّهم فيما يرتبط بالعلم الديني يعتمدون على آرائهم دون الرجوع الى العلماء

الربّانيين: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.



بصائر وسُنَن

قلب الانســـان كالوعاء، وكما أن الوعاء لا يبقى فارغاً حتّى لو سكبت منه الماء، لأنَّ الهواء يحلّ محلّه، كذلك القلب لو لم يتنوّر بالعلم تحلّ محلّه الوساوس والظنون، فتراه يختلق شيئاً ليحلّ محلّ العلم، وهذا معنى الخرص.



به مُستَمسِكون

﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ﴿٢١﴾.

***

تفصيل القول

يتدرّج السياق القرآني في دحض إدّعاء المشركين، فبدأ أولاً – في الآية السابقة – ببيان عدم إمتلاكهم للعلم فيما يقولون: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

وحين لا يحظى الانسان بالعلم، عليه الاعتماد على كتاب يتمسّك به، وهو ما لم يحظَ به أولئك أيضاً كما قال عزّ وجلّ:

﴿أَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ﴾

أي: مِنْ قبل القرآن الذي يجادلون فيه.

﴿فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾

إنّ اولئــك لم يعتمدوا عــلى العلم ولا على الكتــاب، إنمّا على الظنون والخرص.



بصائر وسُنَن

حين لا يحظى الانسان بالعلم، عليه الاعتماد على كتاب يتمسّك به، وهو ما لم يحظَ به الكفار والمشركون أيضاً.



وجدنا آباءنا على أمّة

﴿بَـــلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ۝٢٢﴾.

***

من الحديث

روي عن الإمام أَبِي عَبْدِ الله الصادق عليه السلام أَنَّه قال:

«مَــنْ دَخَلَ فِي هَذَا الدِّيــنِ بِالرِّجَالِ أَخْرَجَهُ مِنْــهُ الرِّجَالُ كَمَا أَدْخَلُــوهُ فِيهِ، ومَنْ دَخَلَ فِيهِ بِالْكِتَابِ والسُّـــنَّةِ زَالَــتِ الْجِبَالُ قَبْلَ أَنْ يَزُولَ»[1].

تفصيل القول

من الاخطاء الكبيرة التي يقع بها البشر والتي تسبب إنحرافات

(١) – بحار الأنوار، ج٢، ص١٠٥.

خطيرة في مسيرته، هو خلطه الدين بالتراث.

وهكذا يتشبّث البعض بالســلف من دون تفحّص، ومن دون الإعتماد على علم، ولا تمسّكٍ بكتاب، إنّما إعتماداً على تقاليد بالية:

﴿بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا ءَابَاءَنَا عَلى أُمَّة﴾

في حــين أنّ العقائد الدينية لا تُعرف بالتقليد. ومن هنا كان من مسؤوليات المجتمع أن يتعلّم الدين الحق عبر المصادر الصحيحة.

وزعم أولئك أنّ إتباع آبائهــم كان لأجل الوصول الى الهداية، فقالوا:

﴿وإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾

كلّا فليس ذلك طريق الهداية.



بصائر وسُنَن

من الاخطاء الكبيرة التي يقع بها البشر والتي تسبِّب انحرافات خطيرة في مسيرته هو خلطه الدين بالتراث.



على آثارهم مقتدون

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

***

من الحديث

من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«...فَاللَّهَ اللَّه أَيُّهَا النَّاسُ فِيمَا اسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ واسْتَوْدَعَكُمْ مِنْ حُقُوقِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، ولَمْ يَتْرُكْكُمْ سُدًى، ولَمْ يَدَعْكُمْ فِي جَهَالَةٍ ولَا عَمًى، قَدْ سَمَّى آثَارَكُمْ، وعَلِمَ أَعْمَالَكُمْ، وكَتَبَ آجَالَكُمْ، وأَنْزَلَ عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ، وعَمَّرَ فِيكُمْ نَبِيَّهُ أَزْمَاناً حَتَّى أَكْمَلَ لَهُ ولَكُمْ فِيمَا أَنْزَلَ مِنْ كِتَابِهِ دِينَهُ الَّذِي رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وأَنْهَى إِلَيْكُمْ عَلَى لِسَانِهِ مَحَابَّهُ مِنَ الْأَعْمَالِ ومَكَارِهَهُ ونَوَاهِيَهُ

وأَوَامِرَهُ، وأَلْقَى إِلَيْكُمُ الْمَعْـذِرَةَ، واتَّخَذَ عَلَيْكُمُ الْحُجَّةَ، وقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ، وأَنْذَرَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَـدِيدٍ، فَاسْـتَدْرِكُوا بَقِيَّةَ أَيَّامِكُمْ واصْبِرُوا لَهَا أَنْفُسَكُمْ»[1].

تفصيل القول

بالرغم مـن أنّ في كل شيء آية تدلّ على الـربّ المُتعال إلّا أنّ البـشر مع ذلك يجد صعوبة في الإيمان بـه، وصعوبة أكبر في الوصول لكمال معرفته. ذلك لأنّ الشـهوات والوساوس الشيطانية وضغوط الطُغاة كلّها تقف حواجز تحول دون إيمان الانسان بالباري عزّ وجل.

وهكذا نجـد أنّ المؤمن يتحدّى المجتمع برمّتـه ويتجاوز كلّ الضغوط من أجل ايمانه بالله المُتعال.

وفيما يتصل بمعرفة الله والتكامل في سُلّم المعرفة فإنّه يصطدم بعقبـة معرفية كبيرة، وهـي أنّ البشر عادة يتعامـل مع الموجودات من الكائنات أو سـائر المخلوقات بمعرفـة ذواتها من قرب، ولكن فيما يرتبط بمعرفة الباري عزّ وجـل فالأمر مُختلف، فربّنا تعالى شيء بخلاف الاشـياء، وهكذا ينتقل الانسـان من المناهج المعرفية التي اعتاد عليها الى منهج آخر ربّاني، والخطأ الفادح الذي ارتكبه البعض أنّهـم خلطوا بين المنهجين فيما يتّصل بالمخلوق والخالق، ولذلك فهم اعتقدوا بالتشبيه.

لكنّ النقلة النوعية عند الانسـان من التعامل مع الشـهود الى التعامل مع الغيب نقلة صعبة، ولذلك علينا أن نذكر الله ونُسبّحه دائماً.

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص١١٧.

ويبدو أنّ التسبيح أعلى الأذكار، لأنّه يعني تنزيه الله تعالى من أن يكون له شريك، وتقديسه عن كلّ التوهمات.

ومِن هنـــا كان علينا أن نذكــر الله ذكراً كثيراً ونســبحه بكرة وأصيـــلا، وأن ننظــر الى المخلوقات نظرة عبوريـــة بالتوجه إلى كونها آية، وهكذا نتوجّه حين ننظر الى الشـــمس والقمر والكائنات الى أنها مخلوقات لله المُتعال، كمن ينظر الى المرآة لكي ينظر بها الى ما تعكســـه، وإذا وصل الانســـان الى هذه المرحلة سوف يكشف الطريق الصحيح للوصول الى الله سبحانه وتعالى.

الصراع في داخل الانسان

والعروج الى الله المُتعال مســـؤولية كل انسان، لأنّ في ذاته نزعة دونية تجذبه الى الارض، بالمقابل عليه أن يكافح تلك النزعة لكي يحلّق الى السماء.

وتتجلّى تلك الحقيقة عنـــد الصلاة حيث تتناقض الحالة الذاتية للانســـان مع مِعراجه الى الباري تعالى، ولذلك فهو يبقى في صراع مع نفسه، ومن هنا سُمّي مكان الصلاة بالمِحراب بمعنى مكان الحرب.

إذن نحـــن بحاجة الى حركة دائمة باتجاه الرب لكي نتحاشـــى السقوط.

يقول ربّنا تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ﴾

لأنّ الناس كانوا يتقولبون ضمن مؤسسات أو أنظمة تتضارب مع مصلحتهم ومع الرسالة لم يكن من السهل عليهم الايمان بالرسول.

وقد يكون النذير نبياً، أو وصيـاً، أو حتّى عالماً ربّانياً، بل وكلّ رسـالي يحمل راية التوحيد ويكافح من أجل تغيير الواقع الفاسد، كلّ أولئك يواجهون المُترفين الذين يقودون المجتمع بصورة أو بأخرى.

ومن هنا تجد أنه كلما أرسل الله نذيراً لهم:

﴿إِلّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾

والأمة تعني مجموعة بشرية يتَّبعون شخصاً او يؤمنون بمنهج، وهذا يعني بدوره أنّ هؤلاء كانوا تجمعاً وكتلة وليسوا متفرقين، وهُم بطبيعة الحال يواجهون الرسالات التي تُهدد مصالحهم.

﴿وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِم مُقْتَدُونَ﴾

فنحن نقتدي بآثارهم ومتَّبعون لهم.

نفهم من ذلك أنّهم لم يكونوا يملكون إسـتقلالية في تفكيرهم، بل كانوا يتبعون غيرهم من أصحاب القوّة والهيمنة.



بصائر وسُنَن

١- لأنّ النـاس كانـوا يتقولبون ضمن مؤسسـات أو أنظمة تتضارب مع مصلحتهم ومع الرسالة، لذلك لم يكن من السهل عليهم الايمان بالرسول.

٢- وقد يكون النذير نبياً أو وصياً او حتّى عالماً ربّانياً، بل وكل رسـالي يحمل راية التوحيد ويكافح من اجل تغيير الواقع الفاسد، كلّ اولئك يواجهون المترفين الذين يقودون المجتمع بصورة او بأخرى.



جئتُكم بأَهدى

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ كِتَابَهُ الصَّادِقَ الْبَارَّ، فِيهِ خَبَرُكُمْ، وخَبَرُ مَا قَبْلَكُمْ، وخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وخَبَرُ السَّمَاءِ وخَبَرُ الْأَرْضِ، فَلَوْ أَتَاكُمْ مَنْ يُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ لَعَجِبْتُمْ»[1].

تفصيل القول

تختلف الظروف في كلّ زمان، ومُقتضيات الاجيال اللاحقة قد لا

(١)- بحار الانوار، ج٨٩، ص٩٠.

تتناسب مع ظروف آبائهم، ومن هنا فالقول بعدم جعل التُراث مصدراً معرفياً تامّاً لا يخصّ كون السلف طالحاً، إنّما حتّى لو كان الآباء صالحين.

المُتغيّرات

وهكذا ففي الحياة مُتغيّرات، فلا يُمكن البقاء على الماضي في كلّ شيء، وقد جاء في الخبر: إن أبا الحسن عليه السلام إشترى داراً، وأمر مولى له أن يتحول إليها، وقال: «**إِنَّ مَنْزِلَكَ ضَيِّقٌ**».

فقال: قد أحدث هذه الدار أبي.

فقال أبو الحسن عليه السلام: «**إِنْ كَانَ أَبُوكَ أَحْمَقَ فَتَبْغِي أَنْ تَكُونَ مِثْلَه**»[1].

إذن، فاتّباع الآباء لمجرد كونهم آباء ليس سلوكاً ومنهجاً سليماً، فما يأتي به الرسول من قبل الله هو أفضل وأهدى من منهج الآباء:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾

قد يكون في التراث حق ولكنّه ليس متكاملاً، والقرآن الكريم يُبيّن لنا القاعدة العامّة في التعامل مع التُراث.

يقول ربّنا في سورة الحشر: ﴿وَالَّذينَ جاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذينَ سَبَقُونا بِالْإيمانِ وَلا تَجْعَلْ فی قُلُوبِنا غِلاًّ لِلَّذينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحيمٌ﴾[2].

فلا ينبغي الاعتقاد بصحّة كلّ ما كان عليه الآباء، فالذين

---

(١)- الكافي، ج٦، ص٥٢٥. ولعلّ الكلام من باب التأديب ولدحض فكرة خاطئة كانت عند المولى.

(٢)- سورة الحش، الآية١٠.

سبقونا بالايمان لديهم أخطاء علينا أن لا نكررها ولذلك نستغفر لهم.

اتّباع زلّة العالم

وهكذا نتأمّل في حديث نبيّنــا العظيم ﷺ حيث قال: «**إِنَّمَا أَتَخَــوَّفُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ بَعْدِي ثَلَاثَ خِصَــالٍ: أَنْ يَتَأَوَّلُوا الْقُرْآنَ عَلَى غَيْــرِ تَأْوِيلِهِ، أَوْ يَتَّبِعُــوا زَلَّةَ الْعَالِمِ، أَوْ يَظْهَرَ فِيهِــمُ الْمَالُ حَتَّى يَطْغَوْا وَيَبْطَرُوا**»[1].

صحيح إنّ العلــماء الصادقين ورثة الانبياء ولهم الفضل الكبير على الناس، ولكن من جهة ثانية ينبغي أن ننتبه إلى أنّ العالِمِ غيرُ معصوم، ومستوى وعي الأمّة هو الدرع الواقي الذي يحول دون غوايتهم.

وقد يكون الآباء على صواب إلّا أن الواقع يقتضي واقعاً جديداً، فنستفيد من ايجابيات التُراث وما يناسبنا منه، ولذلك:

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾

لكنّهم تحدّوا ذلك فقالوا:

﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.



بصائر وسُنَن

لا ينبغي الإعتقاد بصحــة كل ما كان عليه الآباء حتى لو كانوا مؤمنين، فالذين ســبقونا بالإيمان لديهم أخطاء، علينا أن لا نكررها، ولذلك نستغفر لهم.

(١) – الخصال: ج١، ص١٦٤.



عاقبة المكذِّبين

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(٢٥).

***

من الحديث

في الحديث عن عبد السلام بن صالح الهروي عن الامام الرضا عليه السلام، قال: قلت له: لأي علة أغرق الله عز وجل الدنيا كلها في زمن نوح عليه السلام، وفيهم الأطفال، ومن لا ذنب له؟ فقال:

«مَا كَانَ فِيهِمُ الْأَطْفَالُ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ أَعْقَمَ أَصْلَابَ قَوْمِ نُوحٍ وأَرْحَامَ نِسَائِهِمْ أَرْبَعِينَ عاماً، فَانْقَطَعَ نَسْلُهُمْ فَغَرِقُوا ولَا طِفْلَ فِيهِمْ، ومَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ لِيُهْلِكَ بِعَذَابِهِ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ. وأَمَّا الْبَاقُونَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام فَأُغْرِقُوا لِتَكْذِيبِهِمْ لِنَبِيِّ اللَّهِ نُوحٍ عليه السلام، وسَائِرُهُمْ أُغْرِقُوا بِرِضَاهُمْ بِتَكْذِيبِ الْمُكَذِّبِينَ، ومَنْ غَابَ عَنْ أَمْرٍ فَرَضِيَ بِهِ كَانَ

كَمَنْ شَهِدَهُ وأَتَاهُ»[1].

تفصيل القول

وحين تمّت عليهم الحجة، وثبتت لهم مسؤوليتهم عن أعمالهم، جاءهم الانتقام.

وهكذا البشر حين يصل الى مرحلة يتحدّى فيها الرب المُتعال فإنّه يستحق العذاب:

﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾

فمن يُسيء يُساء اليه، وهؤلاء أساؤوا الى الرب والى الحق، وأساؤوا الى الرسول فانتقم الله منهم.

﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾

ابحث في التاريخ ليكون مصباح المستقبل وانظر كيف انتهى عاد وقوم لوط واصحاب الرس وثمود؟



بصائر وسُنَن

من يُسيء يُساء اليه، والمشركون أساؤوا الى الرب والى الحق وأساؤوا الى الرسول فانتقم الله منهم.

(١)- التوحيد (للصدوق)، ص٣٩٢.



بَراءٌ ممّا تَعبُدون

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴿٢٦﴾﴾.

* * *

من الحديث

عن جابر، قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول:

«إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ عَبْداً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ نَبِيّاً، واتَّخَذَهُ نَبِيّاً قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ رَسُولًا، واتَّخَذَهُ رَسُولًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ خَلِيلًا، واتَّخَذَهُ خَلِيلًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَهُ إِمَاماً»[1].

تفصيل القول

لماذا الكفر بالطاغوت يسبق التوحيد، حيث يقول ربنا المُتعال:

(١)- الكافي، ج١، ص١٧٥.

﴿فَمَـــنْ يَكْفُـــرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِـــاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَـــكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[١].

كذلك حينما يحدثنا ربّنا عـــن ابراهيم عليه السلام يُبيّن أنّه أولاً تبرأ من قومه وما يعبدون حيث قال لأبيـــه آزر: ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾[٢]، ثمّ أراه الله ملكوت الســـماوات والارض: ﴿وَكَذلِكَ نُرى إِبْراهيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنينَ﴾[٣].

وفي هـــذه الآية أيضاً يُحدّثنا ربّنا في البدء عن البراءة التي أعلنها إبراهيم عليه السلام في وجه أبيه وقومه:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾

ثم في الآية التالية يُبيّن هداية الله له.

فلماذا البراءة أولاً؟

السبب في ذلك أنّ الله تعالى أحسن كلّ شيء خلقه وأتقنه، فارم ببصرك أنّى شـــئت، واسرح بخيالك الى حيث أبعد مجرّة، فســـوف لا تجد من أصغر خلقه الى اكبره أي تفاوت، ويرجع اليك البصر حسيراً، ولكنّ الانسان هو من يُفسد فيها، فينتج الفيروسات الفتّاكة وأسلحة الدمار الشـــامل وينشر الفســـاد في البرّ والبحر وكما يقول الباري عزّ وجل: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾[٤].

(١)- سورة البقرة، الآية٢٦٥.
(٢)- سورة الأنعام، الآية ٧٤.
(٣)- سورة الأنعام، الآية٧٥.
(٤)- سورة الروم، الآية٤١.

وحين يكُفّ المفسدون عن الفساد وحين نقاوم المُفسدين يصلُح العالم.

يقول ربّنا تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[1].

نعــرف من ذلك أنّ هناك مُهمّة مُلقاة على عاتقنا وهي أن نقطع أيدي الفاسدين.

البراءَة ايذان بنهاية الطُاغوت

و اللافــت في الأمر أنّ القــرآن الكريم لا يأمرنا بالكفّ عن الفســاد فقط، وإنّما البراءَة من المُفســدين، ذلك لأنّ عدم وجــود البراءة يصنع الفراعنــة والنمارِدة، ونظرة الى التاريخ كفيلة بفهم ذلك.

» إنّ القرآن الكريم لا يأمرنا بالكفّ عن الفساد فقط، وإنّما البراءَة من المُفسدين، ذلك لأنّ عدم وجود البراءة يصنع الفراعنة والنماردة.

وحين التأمّــل نجد أنّ ثقافــة التبرير التي تراكمــت عبر العصور هي التي ســببت تســلّط الظالمين على البلاد الاسلامية.

وعدم الــبراءة من الحاكم الظالم أو المجتمع الظالم يؤدي الى الانسجام معه شيئاً فشيئاً.

إذن، يجــب أولاً الكُفــر بالطاغــوت ثم الايمان بــالله لنكون مستمسكين بالعروة الوثقى.

و بالطبع فــإنّ للكفر بالطاغوت ثمن قد يكون قطع الرزق، أو السجن، أو الاعدام، ولكن في النهاية يُقرّب فناء الطاغوت.

(١)- سورة الأعراف، الآية٨٥.

ولا يجتمــع الايمان بالله مع الايمان بالطاغوت، ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الفاسقون.

يقول ربّنا عن النبي ابراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾

الــكلام موجّه الى أبيه ومن يوفّر الحماية له ويدافع عنه، ومن ثمّ الى مجتمعه وهُم آخر من يدافعون عنه فيتحدّاهم قائلاً:

﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾

وكان الكلام تحدّياً صارخاً ممّا يدلّ على صلابة إيمانه.

وهكذا ينبغي على المؤمن أن يقرِّر البقاء على الايمان مهما كانت الظروف.



بصائر وسُنَن

١- عدم البراءة من الحاكم الظــالم أو المجتمع الظالم يؤدي الى الانسجام معه شيئاً فشيئاً.

٢- إذن يجــب اولاً الكُفر بالطاغوت ثم الايــمان بالله لنكون مستمسكين بالعروة الوثقى.

٣- وبالطبع فإنّ للكفر بالطاغوت ثمن قد يكون قطع الرزق او السجن او الاعدام ولكن في النهاية يُقرّب فناء الطاغوت.



انّه سَيَهدين

﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾.

***

من الحديث

عن ابي عبد الله عليه السلام أنّه قال – في حديثٍ –:

«وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام فِي شَبِيبَتِهِ عَلَى الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ الْخَلْقَ عَلَيْهَا حَتَّى هَدَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى إِلَى دِينِهِ واجْتَبَاه»[1].

تفصيل القول

وبتبرّء إبراهيم عليه السلام ممّا عبده آباؤه، قطع صِلته بهم، وإختط لنفسه ولآله من بعده خطّاً نقياً وهو التوحيد.

(١) – الكافي، ج٨، ص٣٧٠.

فولاؤه – عليه السلام – لِربّه الذي فطره وخلقه، وليس لآبائه:

﴿إِلَّا الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾

حتّى لو كان الانسان غير مُكتمل الإيمان والمعرفة إلّا أنّه حين يكفر بالطاغوت سوف يهديه الله عزّ وجل. نستلهم ذلك من قوله تعالى: (سَيَهْدِينِ).

فكيف تكون الهداية؟

قد يبزغ نورٌ على القلب، أو تكون الهداية بالرسول، أو ما أشبه، لكن كلّ ذلك مشروط بالبراءة من الكفر ومِن يُمثّله، ولذلك نقرأ في سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿وَالَّذينَ جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنينَ﴾[1].

» كيف تكون الهداية؟ قد يبزغ نورٌ على القلب، أو تكون الهداية بالرسول، أو ما أشبه، لكن كلّ ذلك مشروط بالبراءة من الكفر ومِن يُمثّله.

فقد جاهدوا آباءهم، أو مجتمعهم الكافر، أو الطُغاة والمستكبرين من أجل الدين.

والقرآن الكريم لم يستخدم كلمة الهداية بلفظ الماضي مع أنّ ابراهيم كان على هداية، وذلك لسببين:

الاوّل: ليكون قدوة لنا، لأنّ الكُفر بالطاغوت طريق الهداية.

ثانياً: من أجل زيادة الهداية لـه ليصل الى قمّة الايمان واليقين، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرى إِبْراهيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

(١)- سورة العنكبوت، الآية٦٩.

وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[1].

فهناك قمم ســـامية للايمان، وبالكفر بالطاغوت يصل الانسان الى اعلاها.



بصائر وسُنَن

القـــرآن الكريم لم يســـتخدم كلمة الهداية بلفـــظ الماضي مع أنّ ابراهيم كان على هداية وذلك لسببين:

أولاً: ليكون قدوة لنا بأنّ الكُفر بالطاغوت هو طريق الهداية.

ثانياً: من أجل زيادة الهداية له ليصل الى قمّة الايمان واليقين.

(١)- سورة الأنعام، الآية ٧٥.



كلمة باقية

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

* * *

من الحديث

جاء في حديثٍ أنَّ أمير المؤمنين عليه السلام قرأ قول الله عزَّ وجل: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ ثُمَّ قالَ:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَقِبَ إِبْرَاهِيمَ، وَنَحْنُ أَهْلَ الْبَيْتِ عَقِبُ إِبْرَاهِيمَ وَعَقِبُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم**»**[1].

تفصيل القول

سيرة النبي العظيم ابراهيم الخليل عليه السلام شُعلة متّقدة لم تنطفئ عبر التاريخ، وحتّى آخر بشر يطأ المعمورة يحتجّ الله عليه بابراهيم عليه السلام،

(١) - بحار الأنوار، ج٢٤، ص١٧٩.

وبعض مصاديقها الحج الابراهيمي.

يقول ربّنا تعـالى مخاطباً النبي إبراهيـم عليه السلام: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.[1]

فالمناسـك التي يؤديها المسـلمون في الحج إنّما يتأسّـون فيها بإبراهيم عليه السلام مِن الرمي والذبح وحتّى الطواف حول الكعبة التي بناها ابراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

وفي هذه الآية يقول ربّنا تعالى:

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾

أي جعل كلمـة التوحيد التي صدع بها في الآيتين السـابقتين، حيث تبرأ مـن الآلهة المزيَّفة، وأفصح عن إيمانه بالذي فطره وخلقه، جعل كلمة التوحيد باقية فيمن يأتون من بعده.

» المناسك التي يؤديها المسلمون في الحج إنّما يتأسّون فيها بإبراهيم عليه السلام مِن الرمي والذبح وحتّى الطواف حول الكعبة التي بناها ابراهيم عليه السلام.

فمن ينحدرون من نسـل ابراهيم يحملون راية التوحيد، وأبرزهم وأفضلهم رسـول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فهو رمز السـلالة الابراهيمية. ومن سلالة ابراهيم عليه السلام ايضاً مَن يَملأ الأرض قِسطاً وعدلاً وهو إمامنا الحجّة المهدي عجل الله فرجه.

والسؤال: ما الحكمة من جعلها كلمة باقية في عقبه؟ الجواب:

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

(١)- سورة الحج، الآية٢٧.

(٢)- سورة البقرة، الآية ١٢٧.

ذلـــك لكي تتمّ الحجّة على الناس لعلهـــم يرجعون الى الله والى كلمة التوحيد كلما عصفت بهم رياح الضلال والشرك.



بصائر وسُنَن

ســـيرة النبي العظيم ابراهيم الخليل عليه السلام شُعلة متّقدة لم تنطفئ عبر التاريخ، وحتّى آخر بشر يطأ المعمورة يحتجّ الله عليه بابراهيم عليه السلام، وبعض مصاديق ذلك هو الحج الابراهيمي.



مَتَّعتُ هؤلاء وآباءَهم

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ ۝٢٩﴾.

* * *

من الحديث

جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال:

«يَا ابْنَ آدَمَ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْه»[1].

تفصيل القول

يهرم ابن آدم وتشبّ فيه خصلتان: الطمع وطول الامل. وهكذا كلّما طال عُمر الانسان كلّما زادت علاقته بالدنيا، ولكن كيف؟

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٤٧٢.

لو ذهبتَ الى مدينــة جديدة وقطنتَ بيتاً فيها لفترة وجيزة فمن الســهل عليك مغادرته، لكن لو بقيتَ في البيت سنوات مديدة فليس من الســهولة تركه لأنّك تعلّقت به. والمشــكلة أنّ هــذه العلاقة بين الانســان وبين الطبيعة قد تُصبح عائقاً بينه وبــين الحق، وذلك حينما يتعــارض الدين مع الدنيــا، فيُؤمر مثلاً بالهجرة مــن وطنه وهو يجِد صعوبة في ذلك.

ومن هنا نجــد في القرآن أنّ الهجرة قورنت بالجهاد في ســبيل الله. ولعلّه لذلك يقول ربّنا تعالى في ســورة الحديــد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُــوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[1].

» يهـرم ابـن آدم وتشـبّ فيـه خصلتـان: الطمـع وطـول الامـل. وهكـذا كلّـما طـال عُمـر الانسـان كلّـما زادت علاقتـه بالدنيـا، ولكـن كيـف؟

فبعد طول الامد يصبح القلب قاســياً، فلا يتأثّــر كما كان في الســابق، فقد يكون الشــخص مجاوراً لبيــت الله الحرام، أو للمشــاهد المشرّفة، ومع مرور الزمن يعتاد على مجاورتها فلا يستشــعر بقدسيتها، وهذه الحالة تنشأ من طول الامد. يقول ربّنا تعالى:

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾

حيث أعطاهم متاع الحياة الدنيا، فكانوا يعيشون حياة مطمئنة في بلدة طيبة عبر أجيال متلاحقة:

﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾

(١)- سورة الحديد، الآية١٦.

جاءهم الحق عبر الكتاب المُبين والرســول الأمين لكي يكون حجّة عليهم، ولكنّهم كانوا يحسبون أنّ هذه المتع التي متّعهم ربّهم بها دليلُ صلاحهم، غافلين عن أنّ النِعم قد تكون استدراجاً منه سبحانه.



بصائر وسُنَن

العلاقة بين الانســان وبين الطبيعة قد تُصبــح عائقاً بينه وبين الحق، وذلك حينما يتعارض الدين مع الدنيا.



هذا سحرٌ

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴿٣٠﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ فقال:

«انْشَــقَّ الْقَمَرُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم حَتَّى صَارَ بِنِصْفَيْنِ ونَظَرَ إِلَيْهِ النَّاسُ وأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا ويَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾،

فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ سَحَرَ الْقَمَرَ سَحَرَ الْقَمَر»[1].

(١)- بحار الأنوار، ج١٧، ص٣٥٤.

تفصيل القول

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾

حينما جاء الحقّ متجلياً بالرسول المُبين والآيات البيّنات:

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ﴾

ولكن لماذا يتهم الكفّار الرسل بالسحر؟

لأنّ الرسـالات التي يأتي بها الرسل كانت قريبة مـن قلوبهم وعقولهـم وعواطفهم، وكانوا ينجذبون إليهـا، ولكنّهم لم يريـدوا الإيمان بها، ففسّروها بالسحر، لأنّه يجذب الفرد من حيث لا يدري، ولكن جهلوا الفرق الكبير بين رسالة الحق والسحر الباطل، فأثر السحر أثر سطحي ظاهري وقتي يزول بزوال المؤثّر، بينما الرسـالة ليسـت كذلـك، وإنما تأثيرها عميـق وجذري وحقيقي، كما أنّ الرسـالة تطلب منك موقفاً وأنت في كامل وعيك، وانطلاقاً مـن عقلك، بعكس ما هو عليه السحر حيث تتراءى لك أشـياء معيّنة غير حقيقية بتأثير السحر، ولا يُفلح الساحر حيث أتى بينما صاحب الرسالة منصور من عند الله.

» إنّ الرسالات التي يأتي بها الرسل كانت قريبة من قلوبهم وعقولهم وعواطفهم، وكانوا ينجذبون إليها، ولكنّهم لم يريدوا الإيمان بها، ففسّروها بالسحر.

فقد كان اولئك سادرين بالغي، مسترسلين بالأخطاء، متوغلين بالفواحش، ولذلك لم يقبلوا بالآيات بل وتحدّوها قائلين:

﴿وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾

فقد أغلقوا على أنفسهم أبواب الهداية.

وأيّ مجتمــع يصل الى هذا المســتوى من التســافل فهو مجتمع يستحقّ العذاب وتتحوّل النِعم عنده الى نقم لأنّه أساء إستخدامها.



بصائر وسُنَن

تأثير الرسالة في الإنســان - بخلاف السحر - عميق وجذري وحقيقي، كما أنّ الرسالة تطلب من الإنسان موقفاً وهو في كامل وعيه وانطلاقاً من عقله، بعكس ما هو عليه السحر.



رجل من القريتين عظيم

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾.

***

تفصيل القول

يتمادى المشركون في الكُفر فيجعلون معايير باطلة لمعرفة الحق وأتباعه، ومن ذلك تحويل المال - الذي هو نعمة من الله - الى معيار لجعل الحق مع من يملك مالاً أكثر، ليس على مستوى الشخص فحسب بل حتّى على مستوى البلدان:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾

فكيف ينزل القرآن على رجل فقيد الابوين، عديم الاموال، يأكل الطعام ويمشي في الاسواق كسائر الناس؟ وهكذا جعلوا معايير باطلة لمعرفة الحق.

والمقصود بالقريتين طائف ومكّة المكرّمة، وإنّما اصطلح عليهما القرآن الكريم بالقرية للتدليل على إبتعادهما عن القيم الربّانية. ولذلك نجد في آية أخرى يُعبّر القرآن الكريم عن مكّة - باعتبار وجود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه - بالبلد حيث يقول: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾[1]. فما دام فيه رجل عظيم - كالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم - يصبح البلد عظيماً يستأهل القَسَم به.

وفي شأن نزول هذه الآية الكريمة جاء في كتاب الإحتجاج:

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة، إذ قال له عبد الله بن أميّة المخزومي - فيما قال محتجّاً -: لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولا لبعث أجلّ مَنْ فيما بيننا مالاً، وأحسنه حالاً، فهلّا نزل هذا القرآن، الذي تزعم أنّ الله أنزله عليك، وابتعثك به رسولا، على رجل من القريتين عظيم: إمّا الوليد بن المغيرة بمكة، وإمّا عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما قال:

«وَأَمَّا قَوْلُكَ: (لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ: الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ بِمَكَّةَ، أَوْ عُرْوَةَ بِالطَّائِفِ)، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَسْتَعْظِمُ مَالَ الدُّنْيَا كَمَا تَسْتَعْظِمُهُ أَنْتَ، ولَا خَطَرَ لَـهُ عِنْدَهُ كَمَا لَهُ عِنْدَكَ، بَلْ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ تَعْدِلُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ لَمَا سَقَى كَافِراً بِهِ مُخَالِفاً لَهُ شَرْبَةَ مَاءٍ، ولَيْسَ قِسْمَةُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بَلِ اللَّهُ هُوَ الْقَاسِمُ لِلرَّحْمَاتِ والْفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ فِي عَبِيدِهِ وإِمَائِهِ، ولَيْسَ هُوَ عَزَّ وجَلَّ مِمَّنْ يَخَافُ أَحَداً كَمَا تَخَافُهُ أَنْتَ لِمَالِهِ وحَالِهِ فَعَرَفْتَهُ بِالنُّبُوَّةِ لِذَلِكَ،

(١)- سورة البلد، الآية١-٢.

ولَا مِمَّنْ يَطْمَعُ فِي أَحَدٍ فِي مَالِـهِ أَوْ فِي حَالِهِ كَمَا تَطْمَعُ أَنْتَ فَتَخُصَّهُ بِالنُّبُوَّةِ لِذَلِكَ، ولَا مِمَّنْ يُحِبُّ أَحَداً مَحَبَّةَ الْهَوَاءِ كَمَا تُحِبُّ أَنْتَ فَتُقَدِّمَ مَنْ لَا يَسْتَحِقُّ التَّقْدِيمَ، وإِنَّمَا مُعَامَلَتُهُ بِالْعَدْلِ فَلَا يُؤْثِرُ إِلَّا بِالْعَدْلِ لِأَفْضَلِ مَرَاتِبِ الدِّينِ وجَلَالِهِ إِلَّا الْأَفْضَلَ فِي طَاعَتِهِ والْأَجْدَى فِي خِدْمَتِهِ، وكَذَلِكَ لَا يُؤَخِّرُ فِي مَرَاتِبِ الدِّينِ وجَلَالِهِ إِلَّا أَشَدَّهُمْ تَبَاطُؤاً عَنْ طَاعَتِهِ...»[1].



بصائر وسُنَن

يتمادى المشركون في الكُفر، فيجعلون معايير باطلة لمعرفة الحق وأتباعه، ومن ذلك تحويل المال - الذي هو نعمة من الله تعالى - الى معيار لجعل الحق مع من يملك مالاً أكثر، ليس على مستوى الشخص فحسب بل حتّى على مستوى البلدان.

(١)- الإحتجاج، ج١، ص٣٢.



رفعنا بعضهم درجات

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴿٣٢﴾﴾.

***

من الحديث

عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم - في حديثٍ طويل - في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ قال:

«فَأَحْوَجْنَا بَعْضاً إِلَى بَعْضٍ، أَحْوَجَ هَذَا إِلَى مَالِ ذَلِكَ وأَحْوَجَ ذَلِكَ إِلَى سِلْعَةِ هَذَا وإِلَى خِدْمَتِهِ، فَتَرَى أَجَلَّ الْمُلُوكِ وأَغْنَى الْأَغْنِيَاءِ مُحْتَاجاً إِلَى أَفْقَرِ الْفُقَرَاءِ فِي ضَرْبٍ مِنَ الضُّرُوبِ: إِمَّا سِلْعَةٌ مَعَهُ لَيْسَتْ مَعَهُ، وإِمَّا خِدْمَةٌ يَصْلُحُ لَهَا لَا يَتَهَيَّأُ لِذَلِكَ الْمَلِكِ أَنْ يَسْتَغْنِيَ إِلَّا بِهِ، وإِمَّا بَابٌ مِنَ الْعُلُومِ والْحِكَمِ هُوَ فَقِيرٌ إِلَى أَنْ يَسْتَفِيدَهَا مِنْ

هَذَا الْفَقِيرِ، فَهَــذَا الْفَقِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى مَالِ ذَلِــكَ الْمَلِكِ الْغَنِيِّ، وذَلِكَ الْمَلِــكُ يَحْتَاجُ إِلَى عِلْمِ هَذَا الْفَقِيرِ أَوْ رَأْيِهِ أَوْ مَعْرِفَتِهِ، ثُمَّ لَيْسَ لِلْمَلِكِ أَنْ يَقُولَ: هَلَّا اجْتَمَعَ إِلَــى مَالِي عِلْمُ هَذَا الْفَقِيرِ، ولَا لِلْفَقِيرِ أَنْ يَقُولَ: هَــلَّا اجْتَمَعَ عَلَى رَأْيِي وعِلْمِي ومَا أَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنْ فُنُونِ الْحِكْمَةِ مَالُ هَذَا الْمَلِكِ الْغَنِيِّ. ثُمَّ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَ رَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا﴾ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ قُلْ لَهُمْ: ﴿وَ رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أَيْ مَا يَجْمَعُهُ هَؤُلَاءِ مِنْ أَمْوَالِ الدُّنْيَا...»[1].

تفصيل القول

يغفل الجاهليون أنّ الثــروة التي جعلوها معياراً للحق هي من عطاء الله تعالى لهم، لكنّهم يتكبّرون على الله ويُجابِهون رســوله إستناداً لما يملكون. يقول تعالى:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾

يبيّن لنا ربّنا ضمن ذِكر حدثٍ تاريخيٍ سُنن الله الجارية في خلقه، والأنظمة الحضارية التي أجراها في الامم.

حكمة الاختلاف

ومن تلك السُنن التي يُبيّنها ربّنا هي سُنّة الاختلاف، فما الحِكمة منها؟ وهل لنا أن نرفعها كما حاولت الشيوعية فِعل ذلك وفشلت؟

وبدراســة واعية للتاريخ نفهم أنّنا لا يمكن أن نرفع التمايز بين الفئــات المختلفة من الامّــة، إنّما ينبغي تطويق الآثار الســلبية للتمايز

(١) - الإحتجاج، ج١، ص٣٣.

إنطلاقـــاً من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِـــرَارَ عَلَى مُؤْمِنٍ**»[1]. فاذا أصبح ثراءُ البعض بحيث أضرّ بالناس، كان اللازم إتخاذ التدابير الضرورية لمنع الإضرار. وهكذا يقول ربّنا عزّ وجلّ:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾؟

كلا، بل ربنا هو الذي يقسم الرزق بين عباده:

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

ثم جعل الله التمايز بين الطبقات والفئات الإجتماعية المختلفة:

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾

مما يُفهم منه أيضاً أنّ هناك طبقات مُختلفة، ومنها الطبقة الوسطى التي تُعدّ ســبباً رئيسياً في نمو المجتمعات، والحِكمة من ذلك كما يقول تعالى:

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾

والسُــخرة تعني الاستخدام، فقد خصّ ربّنا كلّ إنسان بموهبة لتتكامل الحياة باستفادة كل شخص من مواهب وإمكانات الآخرين، إذ لو جعل الله كلّ الناس مكتفين في كلّ شيء لكانوا يطغون ويتكبّرون، لأنّ بعض الناس وهو محتاج بشــدّة إلى الآخرين تراه يقول: (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)! فكيف إذا أحسّ بالاســتغناء وتحرّر مــن قيود الاحتياج الى الآخرين؟!

بــل لو لم يتفاضل الناس بالمواهب لما بُنيت حضارة، ولا تنامى

(١)- الكافي، ج٥، ص٢٩٤.

مجتمع أو تجمّع، ولعاش الناس كما الحيوانات في صراع أبدي.

لكنَّ هذا لا يعني أنّ الغني أقرب الى الله من الفقير، وأنّ الدين يحترم الغني أكثر من الفقير، كلا ففي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «**مَنْ أَتَى غَنِيّاً فَتَوَاضَعَ لَهُ لِغِنَاهُ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِه**»[1].

فليس لأجل المال يكون الاحترام، إنّما الاحترام يكون بمعيارية التقوى عند الانسان.

ثم يقول ربّنا:

﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

لقد زعموا أنّ الرسـالة لابدّ أن تهبط على الأغنياء، فردّهم الله بأنّه هو الذي يقسـم بينهم معايشهم، وأنّه خصّ كلّ فرد بموهبة لكي ينتفع كل واحدٍ بالآخرين. وأضاف: إنّ قيمة الرسـالة (وهي الرحمة الإلهية) أعظم من قيمة المال، فلـو كان المعيار هو المال لكان صاحب الرسالة أولى بالغِنى.



بصائر وسُنَن

لقد خصّ ربّنا كلّ إنسـان بموهبة لتتكامل الحياة، إذ لو جعل الله كلّ النـاس مكتفين في كلّ شيء لكانوا يطغون ويتكبّرون، بل لو لم يتفاضل الناس بالمواهب لما بُنيت حضارة، ولا تنامى مجتمع أو تجمّع، ولعاش الناس كما الحيوانات في صراع أبدي.

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٥٠٨.



سُقُفاً من فضّة

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

***

من الحديث

قال الإمام الصادق عليه السلام بعد أن قرأ هذه الآية:

«لَوْ فَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ لَمَا آمَنَ أَحَدٌ، ولَكِنَّهُ جَعَلَ فِي الْمُؤْمِنِينَ أَغْنِيَاءَ وفِي الْكَافِرِينَ فُقَرَاءَ، وجَعَلَ فِي الْكَافِرِينَ أَغْنِيَاءَ وفِي الْمُؤْمِنِينَ فُقَرَاءَ، ثُمَّ امْتَحَنَهُمْ بِالْأَمْرِ والنَّهْيِ والصَّبْرِ والرِّضَا»[1].

(١)- تفسير القمي، ج٢، ص٢٨٤.

تفصيل القول

ليسوا سواء من عرفوا طريق الحق ممّن هم في ضلال مُبين، لا يعرفون الهدف من الحياة ولا يُبصرون النهاية، فهم في حِيرة وتِيه.

وهكذا من أعظم مشاكل البشر هو عدم إيمانهم بالآخرة، والذي يُسبّب حالة من الارباك لعقل الانسان، لأنّ العقل سيجهل ما هو أعظم، فيفقد توازنه، ثم يخطئ في فهم المقاييس لاختلال ميزانه.

وهكذا يذكّرنا القرآن الكريم المرّة بعد الأخرى بهذه البصيرة، وهي أنّ البشر يعلمون ظاهراً من الحياة الدُنيا، بينما يكمن خلف الظاهر باطن وغيب، ولهذه البداية نهاية.

هُنا يُفنّد السياق القرآني كلام المشركين الذين كفروا بالرسالة: ﴿وَ قَالُوا لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظيمٍ﴾ فيبيّن - أولاً - أن تقسيم المعيشة هي من الباري عزّ وجل، وهو الذي جعل التباين في الطبقات الإجتماعية، ليتّخذ بعضهم بعضاً سُخرياً من أجل تكامل الحياة، فلم يجعل الله لبلدٍ كلّ الامكانات، ولا لإنسانٍ كلّ الكمالات، وذلك لكي يتكامل الناس بعضهم مع بعض.

ثمّ بعد ذلك يُبيّن ربّنا أن المعيار في التكامل هو التقرّب الى الله المُتعال وليس المقاييس المادّية، ولذلك فقد تكون للذين كفروا أموالٌ طائلة، ولكنهم هم الأبعد عن الله. ولو كان الرب خصَّ المؤمن بالمال لكان ذلك يعني أنّ مقياس العطاء الالهي هو مدى قُربه منه، وحين لم يكن كذلك نعلم أن المال والامكانات المادّية ليست معياراً لمعرفة الحق، وهكذا قد يعيش المؤمن في فقر وعناء ظاهريين بينما المنافق يعيش متنعماً مُرفّهاً، إذ ليس المال هو المِعراج الى الكمال.

ثمّ يتدرّج السياق القرآني في بيان أنّ حقيقة الدنيا هي أنها لأجل الامتحان، ومِن أبعاد تلك الحقيقة أنّ الله قد يُعطي لغير المؤمن ما لا يُعطيه للمؤمن ليتبيّن مدى وثوق المؤمن بإيمانه ومدى إستقرار الايمان في قلبه.

وحين نجد اليوم مَظاهر التغرّب عند بعض المسلمين، إنّما يدلّ ذلك على ضعف الايمان في قلوبهم وتأثّرهم بالمظاهر. يقول ربّنا:

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

لو لا ضعف الايمان ممّا كان يتسبب في أن يكون الناس أمّة واحدة على الكُفر لجُعل الكفّار في أعلى الدرجات من الامكانات المادّية وذلك من هوان الدُنيا على الله.

﴿لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ﴾

حينما تكون الفضة في سقف الدار فهي تُعطي بهجة لصاحب البيت.

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾

بمعنى الدرجات التي يُشرفون عبرها على الآخرين.



بصائر وسُنَن

حقيقة الدنيا هي أنها لأجل الامتحان، ومِن أبعاد تلك الحقيقة أنّ الله قد يُعطي لغير المؤمن ما لا يُعطيه للمؤمن ليتبيّن مدى وثوق المؤمن بإيمانه ومدى استقرار الايمان في قلبه.



سُرراً عليها يتكئون

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۝٣٤﴾.

***

من الحديث

روي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال في خطبة له:

«وَ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِأَنْبِيَائِهِ - حَيْثُ بَعَثَهُمْ - أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ، ومَعَادِنَ الْعِقْيَانِ، ومَغَارِسَ الْجِنَانِ، وأَنْ يَحْشُرَ طَيْرَ السَّمَاءِ ووَحْشَ الْأَرْضِ مَعَهُمْ لَفَعَلَ، ولَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ، وبَطَلَ الْجَزَاءُ، واضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، ولَمَا وَجَبَ لِلْقَائِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ، ولَا لَحِقَ الْمُؤْمِنِينَ ثَوَابُ الْمُحْسِنِينَ، ولَا لَزِمَتِ الْأَسْمَاءُ أَهَالِيَهَا عَلَى مَعْنًى مُبِينٍ، ولِذَلِكَ لَوْ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَها خاضِعِينَ، ولَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلْوَى عَنِ النَّاسِ أَجْمَعِين»[1].

(١)- الكافي، ج٤، ص١٩٨.

تفصيل القول

يستمرّ السياق القرآني في بيان عدم أهميّة المادّيات، ولولا أنّ الناس كانوا يكفرون بالله لِضعف ايمانهم لجعل الكفّار في أعلى درجة من الامكانات المادّية من سُقف الفضة، ومعارج عليها يظهرون.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾

ربما سبب ذكر الأبواب لبيوت من يكفر بالرحمن هو أن تكون بيوتهم مركزاً إجتماعيّا، أو يكون تعدّد الأبواب دليل سعة البيوت، أو المراد أن تكون تلك الأبواب - كما السرر - من فضّة، وربّما أيضاً تدلّ على تداخل البيوت مع بعضها.

﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾

وبسبب إستتباب الامور المادّية عندهم، فهم لا يعانون من المشاكل الظاهرية، كما أنهم ليس لهم عمل يشغلهم، فلذلك تراهم يتكئون على السُّرر.



بصائر وسُنَن

لولا أنّ الناس كانوا يكفرون بالله لِضَعف إيمانهم، لجعل اللهُ الكفّارَ في أعلى درجاتٍ من الإمكانيات المادية من: سُقُف الفضة، ومعارجَ، وأبوابٍ، وسُرُر.



بين متاع الدنيا والآخرة

﴿وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ٣٥﴾.

***

من الحديث

عن الامام موسى ابن جعفر عليه السلام أنّه قال في وصيته لهشام:

«يَا هِشَامُ، إِنَّ لُقْمَانَ قَالَ لِابْنِهِ: تَوَاضَعْ لِلْحَقِّ تَكُنْ أَعْقَلَ النَّاسِ، وإِنَّ الْكَيِّسَ لَدَى الْحَقِّ يَسِيرٌ. يَا بُنَيَّ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ قَدْ غَرِقَ فِيهَا عَالَمٌ كَثِيرٌ، فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ فِيهَا تَقْوَى اللَّه»[1].

تفصيل القول

الهدف لا يُبرّر الوسيلة إنّما يحدّدها، فمن كانت السلطة هدفه

(١)- الكافي، ج١، ص١٦.

ينبغي أن يُسأل عن هدفه من السلطة؟ فإذا كان هدفه من السلطة: إقامة العدل، وإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه، فهو مستحسن ولكن لا يُمكن الحصول على ذلك بالظلم.

وكذلك كلّ شيء آخر، إذا عرفنا الهدف منه فإنّه يتحدّد بغايته، فيسير الانسان في الحياة وِفق بوصلةٍ تحدّد مسيره.

والغاية المُثلى التي تُحدّد كلّ مسيرة الانسان هي رضوان الله تعالى، وعلى الانسان تعقب تلك الغاية العظيمة.

» يسير الانسان في الحياة وِفق بوصلةٍ تحدّد مسيره، والغاية المُثلى التي تُحدّد كلّ مسيرة الانسان هي رضوان الله تعالى، وعلى الانسان تعقب تلك الغاية العظيمة.

محياي ومماتي لله

يقول ربّنا تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]. فكلّ أبعاد الحياة والممات ينبغي أن تكون لله ربّ العالمين الذي فطر السماوات والأرض، وذلك معنى التسليم الحقيقي لله عزّ وجل.

وكما قال النبي الأعظم صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، لِيَكُنْ لَكَ فِي كُلِّ شَيْءٍ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ حَتَّى فِي النَّوْمِ والْأَكْلِ**»[2].

والآيات القادمة من هذه السورة تُذّكرنا بهذه البَوصلة التي تؤثر في مسيرة الانسان بشكل كبير وفي حساب يوم القيامة أيضاً.

وقد يأتي العبد يوم القيامة وفي صحيفته حسناتٌ كثيرة وهي

(١)- سورة الأنعام، الآية١٦٢.

(٢)- مكارم الأخلاق، ص٤٦٤.

فقط بســبب نيته للأعمال الصالحة خالصــة لله وإن لم يُوفّق لأدائها في الدنيا.

﴿وَزُخْرُفًا﴾

هُنا يُبين ربّنا بالاضافة الى تلك الصفات التي ذُكرت في الآيات الســابقة يُبيّن ما يكمّل حُســن بيوت الكُفّار الإفتراضيــة، فيُبيّن أنّها مُزخرفة حتّى في الامور الهامشية.

وكلمة الزخرف تعني كمال حســن الشيء، ومنه قيل للذهــب أنّه زخرف، ويقــال: زخرفه زخرفةً إذا حسّــنه وزيّنــه، ومنــه أُطلقت كلمة (زخرف) على النقوش والتصاوير.

» كلمة الزخرف تعني كمال حسن الشيء، ومنه قيل للذهب أنّه زخرف، ويقال: زخرفه زخرفةً إذا حسّنه وزيّنه، ومنه أُطلقت كلمة (زخرف) على النقوش والتصاوير.

وبالتأمّل في الكلمة نســتلهم حقيقة هامّة، وهي أنّ على الانسان عدم الانشغال بالتوافه، بل عليه التوجّه بشــكل دائم الى الهدف السامي الذي خُلق من أجله وأن يتحاشى التوافه في كلّ الأبعاد.

و مِن تلك الأبعاد هدفية العلم حيث ينبغي أن لا يحيد الانسان عنها.

ففي الانســان حُبّ العلــم، لكن ينبغي الالتفــات الى أنّ من صِفات المؤمنــين هو إعراضهم عن اللغــو، واللغو هو كل شيء غير مفيد وغير نافع، حتى لو كان يرتبط بالعلم والمراكز العلمية.

وهكذا ينبغي أن يُعاد النظر في المناهج العلمية ســواء ما يرتبط بالجامعات أو ما يرتبط بالحوزات.

أمّـا الجامعـات فينبغي أن تستوطن البلاد وتكـون مُرتبطة بالواقع. أمّا الحوزات العلميّة فينبغي أن تستحدث مناهجها بحيث تواكب التطوّر.

فربّنا سبحانه وتعالى يستخدم كلمة الزُخرف من أجل إبعادنا عن الهوامش اللاغية والتوجّه والاهتمام بحقائق الامور.

﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

و المتاع هو ما يأخذه الانسان من قوت وملزومات للسفر، فهو مجرد وسيلة لطريق فانٍ وحياة عابرة.

أمّا مقياس الآخرة فهو التقوى:

﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

وهكذا ينبغي أن يكون تقييم الانسان للآخرين على أساس التقوى وليس على أساس الزخرف من الأمور المادّية.



بصائر وسُنَن

على الانسان عدم الانشغال بالتوافه، بل عليه التوجّه بشكل دائم الى الهدف السامي الذي خُلق من أجله وأن يتحاشى التوافه في كلّ الأبعاد.



شيطانٌ قرين

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۝٣٦﴾.

***

من الحديث

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«مَنْ تَرَكَ الْأَخْذَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ.

مَا بَالُ مَنْ خَالَفَكُمْ أَشَدُّ بَصِيرَةً فِي ضَلَالَتِهِمْ وأَبْذَلُ لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ مِنْكُمْ؟

مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّكُمْ رَكَنْتُمْ إِلَى الدُّنْيَا، فَرَضِيتُمْ بِالضَّيْمِ، وشَحَحْتُمْ عَلَى الْحُطَامِ، وفَرَّطْتُمْ فِيمَا فِيهِ عِزُّكُمْ وسَعَادَتُكُمْ وقُوَّتُكُمْ عَلَى مَنْ

بَغَى عَلَيْكُمْ، لَا مِنْ رَبِّكُمْ تَسْتَحْيُونَ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ، ولَا لِأَنْفُسِكُمْ تَنْظُرُونَ وأَنْتُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُضَامُونَ، ولَا تَنْتَبِهُونَ مِنْ رَقْدَتِكُمْ، ولَا يَنْقَضِي فُتُورُكُمْ.

أَمَا تَرَوْنَ إِلَى بِلَادِكُمْ ودِينِكُمْ كُلَّ يَوْمٍ يَبْلَى وأَنْتُمْ فِي غَفْلَةِ الدُّنْيَا؟»[1].

تفصيل القول

هل بعد النور الا الظلام؟ أم هل بعد الحياة الا الموت؟ وهل بعد الظل الا الحرور؟

هذه المفارقات الواضحة نعرفها ونتعامل معها في الأمور القريبة منّا، لكنّنا نجهلها في الحقائق الكُبرى، فليس بعد الله إلّا الشِرك، وليس بعد نوره إلّا الظلام الدامس.

ولكلّ إنسان مؤمن علاقة مباشرة بين قلبه ونور ربّه، وكلّما ضعفت هذه العلاقة كان مدخلاً للشيطان الرجيم، ومِن هُنا كان على الانسان أن يُحافظ دائماً على بوصلة الايمان التي تُمثّل خارطة الطريق التي يسير عليها.

وليس من السهل الوصول الى تلك المرحلة، بل على المؤمن أن يكون كما يقول ربّنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2]. لأنّ الايمان بحاجة الى استطالة واستقامة، فهو صعب مستصعب، كما جاء في الحديث الشريف عن

(١)- الخصال، ج٢، ص٦٣٤.
(٢)- سورة الأحزاب، الآية ٤٢-٤١.

أبي عبد الله عليه السلام حيث قال: «**إِنَّ أَمْرَنَا صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لَا يَحْتَمِلُهُ إِلَّا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ أَوْ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَوْ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلْإِيمَان**»[(١)].

إلّا أن الصعوبات تُذلّل بتوفيق الله للانسـان، وبدعاء الانسان من الله بتقوية جوارحه وجوانحه على حدٍ سواء.

كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعـاء كميل: «**قَوِّ عَلَى خِدْمَتِكَ جَوَارِحِي واشْدُدْ عَلَى الْعَزِيمَةِ جَوَانِحِي**»[(٢)].

وكما نقـرأ أيضاً في دعاء مـكارم الاخلاق للامام زين العابدين عليه السلام حيث يقول: «**اللَّهُمَّ وَفِّرْ بِلُطْفِكَ نِيَّتِي**»[(٣)].

« إنّ الايمان بحاجة الى استطالة واستقامة، فهو صعب مستصعب، وإن الصعوبات تُذلّل بتوفيق الله للانسان، وبدعاء الانسان من الله بتقوية جوارحه وجوانحه.

وفي هذه الآية يقول ربّنا:

﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ﴾

أصل العشـو النظر ببصر ضعيف، يُقال: عشا إذا ضعف بصره واظلمت عينه. ومعنى ذلك في الآية: أنّ من يضعف عن معرفة الرحمن بعد كلّ ما يجد من آثار رحمته في الوجود، تكون نتيجته أنْ:

﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا﴾

أي: نتيح له شيطاناً على مقاسه وكما يناسبه، فالعالِم يختلف عن الجاهل، والحاكم يختلف عن المحكوم، وهكذا...

(١)- بحار الأنوار، ج٢، ص٧١.
(٢)- مصباح المتهجّد وسلاح المتعبد، ج٢، ص٨٤٩.
(٣)- الصحيفة السجادية، ص٩٢.

﴿فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾

يلازمه ولا يدعه لوحده ليله ونهاره.



بصائر وسُنَن

لكلّ انســـان مؤمن علاقة مبـــاشرة بين قلبه ونـــور ربّه، وكلّما ضعفت هذه العلاقة كان مدخلاً للشيطان الرجيم، ومِن هُنا كان على الانســـان أن يُحافظ دائماً على بوصلة الايمان التي تُمثّل خارطة الطريق التي يسير عليها الانسان.



يصدون عن السبيل

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

* * *

من الحديث

ورد في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«اللَّهُمَّ عَذِّبْ كَفَرَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِكَ، ويَجْحَدُونَ آيَاتِكَ، ويُكَذِّبُونَ رُسُلَكَ.

اللَّهُمَّ خَالِفْ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ، وأَلْقِ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، وأَنْزِلْ عَلَيْهِمْ رِجْزَكَ ونَقِمَتَكَ وبَأْسَكَ الَّذِي لَا تَرُدُّهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ»[1].

(١)- من لا يحضره الفقيه، ج١، ص٤٣٢.

تفصيل القول

نقيض ما تفعلـــه الملائكة بقلب المؤمن حيث تثبّته على الطريق، وتزيل عن طريقه العقبات حتى يتوفّق لعمل الخير، يفعل قرين السوء بقلب الكُفّار والمنافقين، فيســوّف لهم التوبة، ويعرقل مسيرتهم الى الله المُتعال، ويلقي عليهم الكســل كلّما قاموا الى الصلاة أو دُعُوا الى فعل الخير. إنّه يملأ قلوبهم وُعوداً كاذبة وأماني ووساوس. يقول تعالى:

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

وفي الوقت الذي يحرص الشيطان على غواية الانسان فإنّه يُزيّن له الطريق ويعضده بالدليل.

هكذا يزيّن الشيطان لقرينه الضلال حتى يحسبه هدى. وما دام الإنسان يشك في طريقته غير الســليمة يرجى له النجاة، ولكن حينما يزيّن الشيطان له عمله السيء فلا يجد في نفسه داعيا الى التفكّر في صحّة نهجه وسلامة خطّه، لا ينجو أبداً.



بصائر وسُنَن

بالضبط نقيض ما تفعلــه الملائكة بقلب المؤمن حيث تثبّته على الطريــق، وتزيل عن طريقه العقبات حتــى يتوفّق لعمل الخير، يفعل قرين الســوء بقلوب الكفار والمنافقين، فيســوِّف لهم التوبة، ويعرقل مسيرتهم الى الله المُتعال.



بئس القرين

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

❊ ❊ ❊

من الحديث

من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام جاء فيها:

«وَلَئِنْ تَقَمَّصَهَا دُونِيَ الْأَشْقَيَانِ، ونَازَعَانِي فِيمَا لَيْسَ لَهُمَا بِحَقٍّ، ورَكِبَاهَا ضَلَالَةً، واعْتَقَدَاهَا جَهَالَةً، فَلَبِئْسَ مَا عَلَيْهِ وَرَدَا، ولَبِئْسَ مَا لِأَنْفُسِهِمَا مَهَّدَا، يَتَلَاعَنَانِ فِي دُورِهِمَا، ويَتَبَرَّأُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ صَاحِبِهِ، يَقُولُ لِقَرِينِهِ إِذَا الْتَقَيَا: ﴿يا لَيْتَ بَيْنِي وبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِين﴾»[1].

(١)- الكافي، ج٨، ص٢٧.

تفصيل القول

حــين تتراكم الذنوب تجد المرء يبحث عــن الاعاذير لعلّه يُبرر إنحرافه، لكن في يوم الجزاء، حيث تُبلى السرائر وتنكشــف الحقائق، يجد الانسانُ الشــيطانَ ماثلاً أمامه، فيتمنّى أن يكون بينه وبين شيطانه بُعد المشرقين لما ذاق من سيئات الاقتران به، وهو يجرّ الحسرة والندامة ولات حين مندم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ﴾

ويبقى أهل النار في صراع مع شياطينهم ما داموا فيها:

﴿فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾



بصائر وسُنَن

حــين تتراكم الذنوب تجد المرء يبحث عــن الاعاذير لعلّه يُبرر إنحرافه، لكن في يوم الجزاء حيث تُبلى السرائر وتنكشف الحقائق يجد الانســان الشيطان ماثلاً أمامه، فيتمنّى أن يكون بينه وبين شيطانه بُعد المشرقين.



في العذاب مشتركون

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (٣٩).

***

من الحديث

عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«إِنْ كُنْتُمْ لِلنَّجَاةِ طَالِبِينَ فَارْفُضُوا الْغَفْلَةَ واللَّهْوَ، والْزَمُوا الِاجْتِهَادَ والْجِد»[1].

تفصيل القول

صحيح أنّ الله هو الرحمن الرحيم، لكن حين يظلم الناس أنفسهم لا يحظون برحمة الله تعالى، ولن ينفع التبرير والأعاذير يومئذٍ

(١)- غرر الحكم، ص٢٥٨.

لأنّ الظُلم قد وقع.

﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ﴾

فلا التبري من الشيطان ينفع حينئذٍ، ولا تبرير العمل، ولا شفاعة الشافعين، ولا البراءة من المُشركين، ولا تمنّي بُعد الشياطين، كل ذلك لا ينفعهم حينئذٍ. فحذف المتعلّق في الآية يدل على العموم.

وحين يتلاوم المشركون مع شياطينهم يأتيهم الخِطاب:

﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾

كفى بالغفلة ضلالاً

كلّ ذلك نتيجة مرض الغفلة الذي قد يعتري قلب الانسان لمدّة وجيزة، لكنّ فيها سقوطه في النهاية، كما الجُندي في المعركة حيث أنّ غفلته للحظات معدودة قد يؤدي الى هلاكه، كذلك نحن الذين نخوض حرباً مع إبليس لابدّ أن نكون يقظين دائماً وفي حالة الاستعداد الدائم.

ولأنّ الشياطين يتربّصون بنا الدوائر، ويرونا مِن حيث لا نراهم، لذلك علينا أن نلجأ الى الباري عزّ وجل من أجل طرد الشيطان الرجيم.



بصائر وسُنَن

صحيح أنّ الله هو الرحمن الرحيم، لكن حين يظلم الانسان نفسه لا يحظى برحمة الله، ولن ينفع التبرير والأعاذير يومئذٍ لأنّ الظُلم قد وقع.



أفأنت تسمع الصمّ

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِى الْعُمْىَ وَمَنْ كَانَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن أبي جعفرٍ عليه السلام:

«إِنَّ لِلَّهِ عُقُوبَاتٍ فِي الْقُلُوبِ والْأَبْدَانِ: ضَنْكٌ فِي الْمَعِيشَةِ، وَوَهْنٌ فِي الْعِبَادَةِ، ومَا ضُرِبَ عَبْدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ»[1].

تفصيل القول

من أعظم الكوارث التي أصابت البشرية في التاريخ هو تفسيرهم الخاطئ للدين، ذلك لأنّ الدين فطرة وعقل، وهو نظام

(١)- تحف العقول، النص، ص٢٩٦.

متكامل يؤسِّس لحياة فاضلة في مواجهة الظلم والطغيان، وفي مواجهة كلّ الانحرافات التي تؤدي الى تسافل الانسان.

وحين يُفسَّر الدين بشكلٍ خاطئ فإنّه يُصبح أداةً بيد الطُغاة، فيضعف الدين لتضعف معه قُدرةً البشر على مواجهة التحديات.

بين الدعوة والداعي

بيد أنّ إرتباط الدعوة بالداعي، واختلاف المعايير في قبول الداعي عند الناس وذلك حين تنتكس القيم عند المجتمعات، يحولان دون الاهتمام بمحتوى الدعوة وجوهر الرسالة، وإنّما التفكير في موقع الرسول ومكانة الداعية، ممّا يُسبّب خطأً في منهجية التفكير عندهم، وهي منهجية فرعون الطاغية حين قال عن موسى عليه السلام: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذى هُوَ مَهينٌ وَلا يَكادُ يُبينُ﴾[1]. وهي منهجية قوم نوحٍ إذ قالوا له: ﴿وَما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِىَ الرَّأْيِ﴾[2].

والقرآن الكريم يؤكد المرّة بعد الأخرى أنّ الرسول ليس عليه إلّا البلاغ، وهذه نقطة محورية في فهم الدين، وفهم وساوس الشيطان الرجيم في الصد عن سبيل الله والأخذ بنصيحة الناصحين.

إذن في هذه الآية بصيرتان يُبيّنهما القرآن الكريم:

أولاً: لا تنظر الى من قال بل انظر الى ما قِيل، فقد يصدر الحق من الكاذب أو مِن إعلام مُضلّل. وبالمقابل قد تصدر كلمة خاطئة ممّن لا يُعرف منه إلّا الصدق، ومِن هُنا على الانسان أن يكون واعياً بالحقائق ليتحاشا الانحراف.

(١)- سورة الزخرف، الآية٥٢.

(٢)- سورة هود، الآية٢٧.

ثانياً: فيما يرتبط بمسؤولية الداعية، حيث يقول الباري عزّ وجل:

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

كلّا، لأنّ الذي شطّ بعيداً حتى أحاطت به الضلالة أنّى له بالهداية؟

وهكذا ينبغي اليأس عمّن أمات قلبه بحُبّ الدنيا، فأخذ يقيس كلّ شيء بالمال والجاه والقوّة الظاهرية، إنّه في ضلال مبين.

وربّنا هو الذي يهدي من يشاء ولا مِن أحد يُنير القلوب غيره.

ولذلك ليس على الداعي إلّا البلاغ، والهداية من الباري عزّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: أنّ الذي هو في ضلال مُبين هو بمستوى من كان أعمى وأصم.

العمل بالواجب

وبصيرة أخرى يُذكّرنا بها القرآن الكريم بأن لا يضع الداعية نفسه مكان الله، بل عليه أن يقوم بواجبه فحسب. ويبقى الثواب والعِقاب والهداية والضلال بيد الله تعالى وحده.



بصائر وسُنَن

القرآن الكريم يؤكد المرّة بعد الأخرى أنّ الرسول ليس عليه إلّا البلاغ، وهذه نقطة محورية في فهم الدين، وفهم وساوس الشيطان الرجيم في الصد عن سبيل الله والأخذ بنصيحة الناصحين.



إنّا منهم منتقمون

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴿٤١﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال:

«**قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: النُّجُومُ أَمَانٌ لِأَهْلِ السَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ ذَهَبَ أَهْلُ السَّمَاءِ، وأَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِأَهْلِ الْأَرْضِ فَإِذَا ذَهَبَ أَهْلُ بَيْتِي ذَهَبَ أَهْلُ الْأَرْض**»[1].

تفصيل القول

قد يرحم الله أمّة برجلٍ مؤمنٍ أو عالم ربّاني، فكيف بالنبي العظيم صلى الله عليه وآله وسلم ومقامه السامي؟ فقد كان سبباً لأمان قومه من العذاب،

(١)- كمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٢٠٥.

فلو رحل عنهم نزل عليهم العذاب:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾

قد يكــون الرحيل جُغرافياً كما لو انتقل مكاناً الى مدينة أخرى، وقد يكون الرحيل عن الدنيا بلا فرق، إلّا أنّ العذاب ينتظرهم.

وجاءت كلمة الانتقام للتدليل على أنّ العذاب إنّما هو ردّة فعل لأعمالهم وتحدّيهم لآيات الله.



بصائر وسُنَن

قــد يرحم الله أمّة برجــلٍ مؤمنٍ أو عالمٍ ربّــاني، فكيف بالنبي العظيم ﷺ ومقامه السامي، فقد كان سبباً لأمان قومه من العذاب.



إنّا عليهم مقتدرون

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾.

***

من الحديث

عن جابر بن عبد الله الانصاري، قال: أَخْبَرَ اللهُ نَبِيَّهُ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتُقَاتِلُ عَلِيّاً بَعْدَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ ۞ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. وفِي سُورَةٍ أُخْرَى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ۞ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾. فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّاراً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ. ولَئِنْ فَعَلْتُمْ لَتَعْرِفُنِّي غَداً فِي الصَّفِّ أُقَاتِلُكُمْ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى الْإِسْلَامِ»[1].

(١) – شواهد التنزيل، ج١، ص٥٢٩.

تفصيل القول

وقد يعذّب الله الكفّار في عهد الرسول وبمشهد منه، أو بمشهد من الدعاة من أتباعه، لكي يُري المؤمنين قوّته ويقرّ أعينهم بنصره:

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ﴾

ولكي يُحقّق وعده للمؤمنين، ولبيان أنّ القُدرة المطلقة بيده سبحانه.

﴿فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾

فكما أهلك عاداً وقوم لوط وأصحاب الرسّ وثموداً فإنّه يهلك الظالمين، لأنّ القدرة بيده سبحانه.



بصائر وسُنَن

لكي يحقق الله سبحانه وعده للمؤمنين، ولكي يبيِّن لهم أنّ القدرة المطلقة بيده، فإنه قد يعذِّب الكافرين في عهد رسول الله وبمشهدٍ منه.



انّك على صراط مستقيم

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

* * *

تفصيل القول

حين يعلم الدُعاة أنّ الهداية من الباري عزّ وجلّ، وأنَّ القدرة بيده عز وجل، حينئذٍ يُدركون مسؤوليتهم في التبليغ عن الدين الحق، وعدم الانتقاص منه لأجل رضى الناس، فيستمسكون بالدين الحق:

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾

واثقين بنصر الله لهم، وأنّهم على صراطٍ مُستقيم:

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

صحيح أنّ المخاطب في الآية هو رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ظاهراً، إلّا

أنّ الآية تشـــمل الذين يتّبعون هُدى الوحي أيضـــاً، فتبثّ فيهم روح الاستقامة حتّى وإن مال الناس كلّهم عن الصراط القويم.

دُعاة الدين

من البصائر المهمّة للداعي أن لا يخلط هوى نفسه بالدين، وأن لا يوحي للناس بأنّه وجميع تصرفاته يمثل الدين.

لأنّ الخلــط بين الدعوة والداعي قد يُســبب إبتعاد الناس عن الدين بسبب أخطاء تصدر من الداعية.

وتتضاعف مســؤولية الدُعاة لمكانتهم الحاصلة بسبب الدين، وبالطبــع فإنّ حســابهم ســيكون دقيقــاً لأنّ الزلّة منهم قــد تُغوي الكثيرين، لذلــك عليهم أن يتصرّفوا بحِكمــة، وأن يكونوا صادقين في مواقفهــم، وأن يتواضعوا للناس، وأن لا يتجبّروا على الناس تحت غطاء الدين والعلم، فقد جاء في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام: «**اطْلُبُوا الْعِلْمَ، وتَزَيَّنُوا مَعَهُ بِالْحِلْمِ والْوَقَــارِ، وتَوَاضَعُوا لِمَنْ تُعَلِّمُونَهُ الْعِلْمَ، وتَوَاضَعُوا لِمَنْ طَلَبْتُمْ مِنْــهُ الْعِلْمَ، ولَا تَكُونُوا عُلَمَاءَ جَبَّارِينَ فَيَذْهَبَ بَاطِلُكُمْ بِحَقِّكُمْ**»[1].



بصائر وسُنَن

على الداعي إلى الرســالة أن لا يخلط هوى نفسه بالدين، وأن لا يوحي للناس بأنه وجميع تصرفاته إنعكاس للدين، لأنّ هذا الخلط قد يسبب إبتعاد الناس عن الدين بسبب أخطاء تصدر من الداعية.

---

(١)- الكافي، ج١، ص٣٦.



سوف تُسألون

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴿٤٤﴾﴾.

***

من الحديث

وجاء في حديث مأثورعن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ قَالَ:

«الذِّكْرُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم وَأَهْلُ بَيْتِهِ أَهْلُ الذِّكْرِ وَهُمُ الْمَسْئُولُونَ»[1].

تفصيل القول

المقاييس المادّية زائلة بفناء الدُنيا، فأصحاب الدُنيا يذهبون ليصبحوا عِبرة للمعتبرين، بينما يبقى ذِكر أصحاب الرسالة على كلّ

(١)- وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٧٥.

شفة والى يوم يُبعثون. يقول ربّنا المُتعال:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾

فمن يدعو الى الله فإنّ الله يرفع ذكره، من هُنا نجد ذكر النبي ﷺ بعد أكثر من اربعة عشر قرناً لا يزال يتردد، وسيبقى ملايين السنين يملأ الآفاق.

ليس النبي فحسب، وإنّما هذا الشرف كان لقومه أيضاً، فببركته تشرّف العرب بالإسلام ورُفع ذكرهم، وتشرّفت بنو هاشم به، ويفتخر اليوم اكثر من ١٥٠ مليون إنسان بانتسابهم لرسول الله ﷺ.

وبالطبع فإنّ الذِكر الحسن يكون سبباً في إختياره من قبل الناس قدوة لهم في الحياة.

﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾

حساب الجاهل ليس كالعالِم، والحاكم ليس كالمحكوم، فلكلٍّ حسابه الخاص، لكنّ الجميع مشمولون بالسؤال، فهو سنّة الله ولن تجد لسنّة الله تبديلا. فالجميع يُسأل عن أفعاله وتصرفاته ومواقفه، حتى الدعاة الى الدين وحَمَلَةَ الرسالة الإلهية.



بصائر وسُنَن

المقاييس المادّية زائلة بفناء الدُنيا، فأصحاب الدُنيا يذهبون ليصبحوا عبرة للمعتبرين، بينما يبقى ذِكر أصحاب الرسالة على كلّ شفة والى يوم يُبعثون.



واسأل من أرسلنا

﴿وَاسْـــأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴿٤٥﴾﴾.

***

من الحديث

سئل الامام ابو جعفر الباقر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ مَنِ الَّذِي سَـــأَلَ مُحَمَّدٌ وكَانَ بَيْنَهُ وبَيْنَ عِيسَى خَمْسُـــمِائَةِ سَنَةٍ؟ فَتَلَا أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام هَذِهِ الْآيَةَ:

«﴿سُـــبْحانَ الَّذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْـــجِدِ الْحَرام إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بارَكْنا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آياتِنا﴾ كَانَ مِنَ الْآيَاتِ الَّتِي أَرَاهَا مُحَمَّداً حَيْثُ أَسْـــرَى بِهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَنَّهُ حَشَـــرَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ والْآخِرِينَ مِنَ النَّبِيِّينَ والْمُرْسَـــلِينَ، ثُمَّ أَمَرَ جَبْرَئِيلَ عليه السلام فَأَذَّنَ

شَــفْعاً وأَقَامَ شَــفْعاً وقَالَ فِي أَذَانِهِ حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَــلِ، ثُمَّ تَقَدَّمَ مُحَمَّدٌ ﷺ فَصَلَّى بِالْقَوْمِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾. فَقَالَ رَسُــولُ اللَّهِ ﷺ: عَلَى مَنْ تَشْــهَدُونَ؟ ومَــا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ قَالُوا: نَشْــهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، أُخِذَتْ عَلَى ذَلِكَ عُهُودُنَا ومَوَاثِيقُنَا»[1].

تفصيل القول

المهّمة الأولى التي تكفّل بها أنبياء الله تمثّل في هدم البُنيان الباطل الذي أُسّس على غير الايمان، ســواءً على صعيد النظام الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي الفاسد.

ولــو تأمّلنا الواقع المُعاصر أو درســنا التاريخ نجد أنّ الفســاد العريض الذي ينتشر في المجتمع إنّما يقوم على أساس الشرك بالله المُتعال.

فالــشرك جذر كلّ إنحــراف، وهو التبرير الــذي يعتمده كلّ المُفسدين في الأرض لتبرير واقعهم الفاسد. والحِكمة من جعل مُحاربة الفساد وتقويض النظام الإجتماعي الفاسد على رأس أولويّات الانبياء، هــي أنّ معالجة جذر الفســاد اهم من الإنشــغال بمكافحة مظاهره، وهكذا كان الهدف الاوّل للانبياء هدم النظام الاجتماعي الفاسد ومن ثمّ بناء المجتمع الايماني.

الأنبياء ومحاربة الشرك

ونجــد ذلك عند النبي العظيم ابراهيم الخليل عليه السلام، إذ قام بهدم

(١) - الإحتجاج، ج٢، ص٣٢٥.

الاصنام ليهدم معها الافكار الباطلة المعتمدة على الالهة المُزيّفة.

وهكذا تحدّى النبي موسى عليه السلام رأس النظام الفاسد مُباشرة: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[1].

ولذلك يؤكّد القرآن الكريم المرّة بعد الأخرى على اجتناب الطاغوت، تارة في الجانب العبادي، وتارة في الجانب الثقافي، وأخرى في الجانب الاجتماعي. وقد يُضاف الى الطاغوت الجِبت، فماذا يعني؟

الكفر بالجبت والطاغوت

الجبت هو الشيطان الخفي الذي يحاول خداع الإنسان عن طريق تزيين الأعمال المُنكَرة عنده، والجبت كذلك هو: الأفكار الخبيثة التي ينطلق منها الشيطان في إفساد ضمير البشر، من التبريرات والاعذار التي يحتمي وراءها الكسالى والمتقاعسون عن تنفيذ أوامر الله، والثقافة المتخلفة التي تعتمد على الحتمية التي تدعو صاحبها الى الترهل واللامسؤولية.

» يؤكّد القرآن الكريم المرّة بعد الأخرى على اجتناب الطاغوت، تارة في الجانب العبادي، وتارة في الجانب الثقافي، وأخرى في الجانب الاجتماعي.

و بالتالي الجبت يمثّل العوامل الذاتية التي تدعو الإنسان الفرد والمجتمع الى الخمول والانحراف.

أمّا الطاغوت فهو: ذلك الحاكم أو النظام المتسلط على الجماهير باسم الجبت، وبسبب الجبت، فالديكتاتور الذي يستبد بمقدرات الامّة، يجد في إيمان الامة بالجبت، وبالتالي في تخلفها وكسلها ولا

(١)- سورة طه، الآية ٤٣.

مسؤوليتها ضمانا لاستمراره في الظلم والعدوان.

لذلك فإنّ الله تعالى يقدِّم الكفر بالطاغوت على الايمان بالله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[1] ويقول عزّ وجل: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[2]، و من كان في قلبه رين الطاغوت لا يستطيع التسليم للحق.

حبُّ بقاء الطاغوت

وهكذا جاء في الحديث عن صفوان الجمّال أن أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام قال له: «**كُلُّ شَيْءٍ مِنْكَ حَسَنٌ جَمِيلٌ مَا خَلَا شَيْئاً وَاحِداً**» قلتُ له: أيّ شيء؟ قَالَ: «**إِكْرَاؤُكَ جِمَالَكَ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ**» يَعْنِي هَارُونَ الرشيد، إِلَى أَنْ قَالَ: «**يَا صَفْوَانُ، أَيَقَعُ كِرَاؤُكَ عَلَيْهِمْ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «**أَتُحِبُّ بَقَاءَهُمْ حَتَّى يَخْرُجَ كِرَاؤُكَ؟**» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «**فَمَنْ أَحَبَّ بَقَاءَهُمْ فَهُوَ مِنْهُمْ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَانَ وَرَدَ النَّارَ**»[3].

ربنا تعالى يقول:

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾

نستلهم من الآية الكريمة عدّة بصائر:

البصيرة الاولى: من أسباب انحراف المجتمعات هو عدم وعيهم للدين الحق، ولذلك جاء السياق القرآني بصيغة السؤال لاثارة

---

(١)- سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

(٢)- سورة الزمر، الآية١٧-١٨.

(٣)- وسائل الشيعة، ج١٦، ص٢٥٩.

عقل الانسان من أجل معرفة الدين.

البصيرة الثانية: الانبياء العظام تجرّدوا من الزخارف المادّية ليتساموا في الدرجات المعنوية، والتوجّه الى الماديات والمظاهر في الدين نوعٌ من الابتعاد عن روح الدين.

البصيرة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ حيث يُفنّد السياق القرآني الاعتقاد بالشفعاء من دون الله، فليس بعد الرحمن من شفيع، والشفاعة إنّما تكون بإذن الله تعالى.

البصيرة الرابعة: في قوله (آلهة) حيث جاء بصيغة الجمع، لأنّ الآلهة من دون الله متعددة، وحتّى الذين يعبدون الاصنام إنّما يعبدون عدّة أصنام، بينما الله الخالق المدبِّر هو واحدٌ أحدٌ فردٌ صمد.

وهكذا تبتدئ مسيرة الأنبياء بهدم منهج الطاغوت ثمّ بناء صرح التوحيد في الحياة.



بصائر وسُنَن

١- المهّمة الأولى التي تكفّل بها أنبياء الله ومن سار على خطاهم كانت هدم البُنيان الذي أُسّس على غير التقوى، سواءً على صعيد النظام الاجتماعي أو السياسي أو الثقافي الفاسد.

٢- الشرك هو جذر كلّ الانحرافات، وهو التبرير الذي يعتمده كلّ المُفسدين في الأرض لتبرير واقعهم، فتراهم إمّا أن يختلقوا ديناً أو تكون لهم قراءة خاطئة للدين.



أرسلنا موسى بآياتنا

﴿وَلَقَدْ أَرْسَــلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴿٤٦﴾﴾.

***

من الحديث

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال:

«أَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَــى بْنِ عِمْرَانَ عليه السلام: أَ تَدْرِي يَا مُوسَى، لِمَ انْتَجَبْتُــكَ مِنْ خَلْقِي، واصْطَفَيْتُكَ لِكَلَامِي؟ فَقَالَ: لَا، يَا رَبِّ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنِّــي اطَّلَعْتُ إِلَى الْأَرْضِ فَلَمْ أَجِدْ عَلَيْهَا أَشَــدَّ تَوَاضُعاً لِي مِنْكَ، فَخَرَّ مُوسَــى سَــاجِداً وعَفَّرَ خَدَّيْهِ فِي التُّرَابِ تَذَلُّلًا مِنْهُ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَــلَّ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: ارْفَعْ رَأْسَــكَ يَا مُوسَــى، وأَمِرَّ يَدَكَ مَوْضِعَ سُجُودِكَ، وامْسَــحْ بِهَا وَجْهَكَ ومَا نَالَتْهُ مِنْ بَدَنِكَ، فَإِنَّهُ أَمَانٌ مِنْ كُلِّ

سُقْمٍ ودَاءٍ وآفَةٍ وعَاهَة»[1].

تفصيل القول

من صفات ربّنا المُتعال أنّ رحمته سبقت غضبه، وصدقت كلمة ربّنا عزّ وجل أن لا يُعذّب خلقه إلّا إذا إستحقّوا العذاب، لكن السؤال متى تستحق الامم عذاب الله المتعال؟

هناك ثلاثة عوامل لو توافرت استحقّ البشر عذاب الله:

أولاً: وجود الفساد المستشري، إذ إنّ الفساد يصل أحياناً الى القمّة، وكما الأمراض التي قد يكون شفاؤها بطُرُق مختلفة، لكن حين تستشري في الجسم فليس لها إلّا الاستئصال، كذلك المجتمعات البشرية حين يصل الفساد الى رأس الهرم في النظام السياسي فلا ينفع معها حينئذٍ إلّا الاستئصال.

فحينما يطغى الحاكم، ولا يتقيّد بالقانون، ولا يعترف بالقيم، حينذاك يأتي عذاب الاستئصال رحمة بالبشرية وتطهيراً للأرض من رجز الظالمين، ففي بقائهم فساد الأرض. وهكذا الأُمَم حين تنحرف تُستأصل، ولولا ذلك لكانت البشرية في ظلمات.

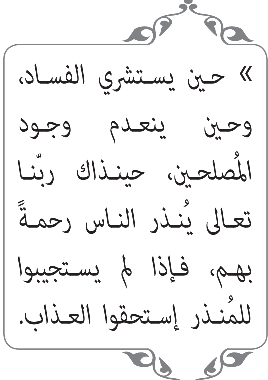
ثانياً: خضوع المجتمع للحاكِم الجائر والرضا بفعله، فوجود أولو بقية يحملون راية الاصلاح يحول دون نزول عذاب الاستئصال. يقول ربّنا عزّ وجل: ﴿وَما كانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرى بِظُلْمٍ وَأَهْلُها مُصْلِحُونَ﴾[2].

(١)- الأمالي (للطوسي)، ص١٦٥.
(٢)- سورة هود، الآية١١٧.

ونزول العذاب لا يكون إلّا بعد خروج المُصلحين لو أنّ الاقوام لم يتعظوا بنُصحهم.

ثالثاً: ولا ينزل العذاب أيضاً إلّا بعد الانذار، يقول تعالى: ﴿وَما أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَها مُنْذِرُونَ﴾[1].

فحين يستشري الفساد ويشمل رأس الهرم في النظام السياسي، وحين ينعدم وجود المُصلحين، حينذاك ربّنا تعالى يُنذر الناس رحمةً بهم، فإذا لم يستجيبوا للمُنذر إستحقوا العذاب.



ومن هنا نجد أنّ الذين استجابوا للرسول كقوم يونس، أو الذين آمنوا برسول الله **محمد** صلى الله عليه وآله وسلم رُفع عنهم عذاب الاستئصال.

يُذكِّرنا القرآن الكريم بدراسة تاريخ الانبياء لنتبصّر السنن الالهية التي جرت وتجري على الامم، لأنّ سُنن الله في الأوّلين هي سننه في الآخرين: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[2].

أرسلنا موسى

يذكر لنا القرآن الكريم بعث النبي موسى عليه السلام الى فرعون:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾

فالنبي موسى عليه السلام كانت معه الآيات المُبصرات والحجج الواضحات، أرسله الرب الى فرعون الذي كان يُمثّل قمّة الفساد في

(١)- سورة الشعراء، الآية٢٠٨.
(٢)- سورة الأحزاب، الآية٦٢.

مجتمع عمّه الرضا عن فرعون. ومن هنا يقــول القرآن الكريم: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ كهامان والمُحيطين به.

﴿فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

جرّد نفسه عن العلائق المادّية من العصبية والعنصرية والطبقية، وقال: إني رسول ربّ العالمين، وبالتالي كانت رسالته الى العالمين، لأنّ الله ربّهم أجمعين.



بصائر وسُنَن

يُذكِّرنا القرآن الكريم بدراســة تاريخ الانبياء لنتبصّر الســنن الالهية التي جرت وتجري على الامم لأنّ سُنن الله في الأوّلين هي سننه في الآخرين، يقول تعالى: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.



إذا هم منها يضحكون

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴿٤٧﴾﴾.

****

من الحديث

عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

«إِنَّ فِرْعَوْنَ بَنَى سَبْعَ مَدَائِنَ فَتَحَصَّنَ فِيهَا مِنْ مُوسَى، فَلَمَّا أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ فِرْعَوْنَ جاءَهُ ودَخَلَ الْمَدِينَةَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْأُسُودُ بَصْبَصَتْ بِأَذْنَابِهَا، ولَمْ يَأْتِ مَدِينَةً إِلَّا انْفَتَحَ لَهُ بَابُهَا حَتَّى انْتَهَى إِلَى الَّتِي هُوَ فِيهَا، فَقَعَدَ عَلَى الْبَابِ وعَلَيْهِ مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ ومَعَهُ عَصَاهُ، فَلَمَّا خَرَجَ الْآذِنُ قَالَ لَهُ مُوسَى عليه السلام: إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ إِلَيْكَ.

فَلَمْ يَلْتَفِتْ، فَضَرَبَ بِعَصَاهُ الْبَابَ، فَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وبَيْنَ فِرْعَوْنَ بَابٌ إِلَّا انْفَتَحَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: أَنَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

فَقَالَ ائْتِنِي بِآيَةٍ. فَأَلْقَى عَصَاهُ وكَانَ لَهُ شُـعْبَتَانِ فَوَقَعَتْ إِحْدَى الشُّعْبَتَيْنِ فِي الْأَرْضِ والشُّـعْبَةُ الْأُخْرَى فِي أَعْلَى الْقُبَّةِ، فَنَظَرَ فِرْعَوْنُ إِلَى جَوْفِهَا وهِيَ تَلَهَّبُ نَاراً وأَهْوَتْ إِلَيْـهِ فَأَحْدَثَ فِرْعَوْن وصَاحَ: يَا مُوسَى خُذْهَا.

ولَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ جُلَسَـاءُ فِرْعَوْنَ إِلَّا هَرَبَ، فَلَمَّا أَخَذَ مُوسَى الْعَصَا ورَجَعَتْ إِلَى فِرْعَوْنَ نَفْسُهُ هَمَّ بِتَصْدِيقِهِ، فَقَامَ إِلَيْهِ هَامَانُ وقَالَ: بَيْنَا أَنْتَ إِلَهٌ تُعْبَدُ إِذْ أَنْتَ تَابِعٌ لِعَبْدٍ؟ واجْتَمَعَ الْمَلَأُ وقَالُوا: هَذَا سَـاحِرٌ عَلِيم»[١].

تفصيل القول

للالفاظ القرآنية لِحاظات دقيقة وهي تُمثّل عمق البلاغة العربية، وفي هذه الآية استخدم القرآن لفظ جاءهم بقوله:

﴿فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا﴾

فلكلمة المجيء دلالة على قوّة الدعوة، فحامل الرسالة جاء اليهم بنفسه يحمل رسالة صدق، ولكن ماذا كانت ردّة فعلهم؟ يقول ربّنا تعالى:

﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ﴾

» للالفاظ القرآنية لِحاظات دقيقة، فلكلمة المجيء دلالة على قوّة الدعوة، فحامل الرسالة جاء اليهم بنفسه يحمل رسالة صدق، ولكن ماذا كانت ردّة فعلهم؟

ردود الافعال كانت مختلفة، فمنهم من توقّف، وبعضهم ظنّ الكذب، والصنف الثالث قام بالاستهزاء،

---

(١)- بحار الأنوار، ج١٣، ص١٠٩.

وأحياناً يكـــون الاســـتهزاء مقرونـــاً بالضحك الـــذي يُمثّل اظهار الاستهزاء.

فقوم النبي موســـى عليه السلام ضحكوا منه ومن آياته، وذلك لتراكم الحُجُب على قلوبهم التي حالت دون ايمانهم بآيات الله.

ولكن ماذا كانت النتيجة؟



بصائر وسُنن

بسبب تراكم الحُجُب على قلوب الكفار والمشركين، فإنّ الكثير منهم يضحك من الرســـل ويســـتهزئ بهم، أو يتوقف حائراً، أو يظن بهم الكذب.



لعلّهم يرجعون

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٤٨﴾﴾.

***

من الحديث

جـاء في الحديث أنَّ الإمام موسـى بن جعفر عليهما السلام سُـئل عن الآيات التسع التي أوتيها موسى بن عمران عليه السلام، فقال:

«الْعَصَا، وإِخْرَاجُهُ يَدَهُ مِنْ جَيْبِهِ بَيْضَاءَ،

والْجَرَادُ، والْقُمَّلُ، والضَّفَادِعُ، والدَّمُ، ورَفْعُ الطُّورِ،

والْمَنُّ والسَّلْوَى آيَةً وَاحِدَةً، وفَلْقُ الْبَحْرِ»[1].

---

(١)- قرب الإسناد، ص٣١٧.

تفصيل القول

قد لا يكون العذاب الذي يُنزّل على الاقوام عذاب الاستئصال، إذ إن العذاب نوعان: إمّا أن يكون عذاب الاستئصال، وإمّا أن يكون للتأديب، فلعل الفــرد أو المجتمع يؤوب الى الله ويتوب ممّا كان عليه، وهو ما أشار اليه الذكر الحكيم في هذه الآية:

﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾

فمن العصا واليد، الى السنين ونقصٍ في الأموال والثمرات، الى الطوفان، والجراد، والقمّل، والضفــادع، والدم، الى الرجز، وكلّ آية من هذه الآيات أكبر وأعظم من أختها، وكلّها كانت من نوع العذاب الأدنى الذي يقضيه الله بلطفه على بعض الأمم بهدف إنذارهم.

﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

ولكن أنّى لتلك القلوب القاســية أن يتوبــوا، فتراهم ينعتون النبي موسى عليه السلام بالساحر إعلاناً منهم بعدم الايمان.



بصائر وسنن

عذاب الله نوعان:

١- عذاب الإستئصال.

٢- عذاب التأديب الذي ينزله الله لعل الفرد أو المجتمع يؤوب الى خالقه ويتوب مما هو عليه.



يا أيُّها السّاحر

﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّـــاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ(٤٩)﴾.

* * *

تفصيل القول

هل رجع بنو اسرائيل بعد أن رأوا الآيات؟

كلّا، فحين يصيبهم العذاب يتوسّـــلون بموسى عليه السلام ويسمّونه ساحراً أن يدعو ربّه بما عهد عنده من الآيات والرسالة، فإن أزال عنهم العذاب إنّهم لمهتدون:

﴿وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ﴾

ثلاث ملاحظات نستلهمها من الآية المباركة:

الأولى: أنّهم سمّوا موسى ساحراً.

والثانية: أنّهم قالوا: ادع لنا ربّك، ولم يقولوا: ربّنا.

والثالثة: أنّهم حين جاءَهم النبي بالآيات لم يهتدوا، إنما قالوا: ﴿إنّنا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف عنا ربّك العذاب، فهم لن يهتدوا إلّا بعد أن يكشف الله عنهم العذاب.

وتساءل المفسّرون: كيف سمّوا موسى ساحرا ثم سألوه أن يدعو ربّه بالنجاة؟

و الجواب:

أوّلا: يكشف القرآن الحكيم دائما تناقضات الكفّار، وكيف أنّهم ضلّوا فلا يهتدون سبيلا، وبالذات فيما يرتبط بالنبوّة، فقال ربّنا سبحانه: ﴿بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[2].

» قوم فرعون بدورهم ضلّوا في أمر موسى، فمن جهة قالوا: يا ساحر، ومن جهة ثانية اعترفوا بأنّ قدرته ليست منه، ولا من بعض ما يعرفونه من الحيل، بل من الله.

وقوم فرعون بدورهم ضلّوا في أمر موسى، فمن جهة قالوا: يا ساحر، ومن جهة ثانية اعترفوا بأنّ قدرته ليست منه، ولا من بعض ما يعرفونه من الحيل، بل من الله، فسألوه أن يدعو ربّه.

بين السحر والمعجزة

ثانيا: إنّ تهمة السحر التي كان الكفّار يفترونها على الأنبياء

(١)- سورة الأنبياء،، الآية٥.

(٢)- سورة الإسراء، الآية٤٨.

كانــت أقوى حجّة لصدق نبوّتهــم، إذ إنّهم اعترفوا مــن خلالها بأنّ الرســل يأتون بما هو خارق العادة، ولكنّهم كانوا يفسّرونه بالسحر. ونحن نعرف براءة الرسل من السحر، إذ لا يفلح الساحر حيث أتى، ونعرف الفرق الذي جهلوه بين السحر والنبوة، فيكون اعتراف الأمم الكافرة دليلاً على صدق الرسل، وأنّ تلك كانت آيات تشابهت عليهم بامتلاك الرســل الخوارق، كما نعرف أنّ كفر أولئــك الجاهليين كان بدافع الكبر وحُبّ الدنيا والهروب من المسؤولية.

ثالثا: بالرغم من اتّهام النبي موسى عليه السلام بالسحر، ونكثهم المكرّر لوعدهم إيّــاه بالتصديق، لم يزل هذا النبي العظيم يدعو ربّه لأجلهم. وحقّا، ما أوســع هذا الصدر، وما أرحم هــذا القلب، وما أدوم هذه الاستقامة في طريق الدعوة التي ينبغي أن نجعلها لأنفسنا أسوة ومثلا حسناً؟



بصائر وسُنَن

يكشــف القرآن الحكيم دائماً تناقضات الكفّــار، وكيف أنّهم ضلّوا فلا يهتدون سبيلا، وبالذات فيما يرتبط بالنبوّة.



إذا هم يَنكثون

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ۝٥٠﴾.

***

تفصيل القول

بالرغــم من أنّهــم كانوا قد تعاهــدوا بالايــمان إذا رُفع عنهم العذاب، ولكن تراهم ينكثون:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾

وهذا هو الســياق الطبيعي للأمم التي نزل عليها العذاب، مع اختلاف الصور والاساليب ولكن وحدة المنهجية.

ومن هنا نعرف أنّ من رأى عــذاب التأديب عليه أن لا يفوّت الفرصة على نفسه لأنّه إذا جاءه العذاب الثاني فلا مردّ له من الله.

وإنّنا نجــد فرعون وملأه قد تعهّدوا بالهدايــة، إذ قالوا: ﴿إِنَّنا

لَمُهْتَدُونَ﴾، ولكنّهم أخلفوا بعد أن كشــف الله عنهم العذاب، فأنزل الله عليهم عذاب الاستئصال.



بصائر وسُنَن

من رأى عذاب التأديب عليه أن لا يفوّت الفرصة على نفســه لأنّه إذا جاءه العذاب الثاني فلا مردّ له من الله.



أليس لي مُلك مصر

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴿٥١﴾﴾.

* * *

من الحديث

في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنَّه قال:

«**الشَّقِيُّ مَنِ اغْتَرَّ بِحَالِهِ وَانْخَدَعَ لِغُرُورِ آمَالِه**»[1].

تفصيل القول

في داخل الانســان قوتّان متنازعتان: إحداهما تهوي به الى درك الجحيم والأخرى ترفعه الى أعلى علّيين. فمن جهة نجد لديه النزعات الخاطئــة، كنزعة الربوبيّة، والأهواء المضلّلة، ووســاوس الشــيطان

(١)- غرر الحكم ودرر الكلم، ص٩٦.

الرجيم، ومن جهة أخرى يملك الانسان مرتكزات أثقل من الجبال، كالعقل، والإرادة، والايمان.

ويضرب لنا القرآن الكريم أمثلة تاريخية لكي نطبقها في واقعنا، لكنّ الانسان يجد صعوبة في التطبيق وذلك لوجود حالة التبرير لديه، وهكذا يسترسل مع الشهوات والوساوس ويبرر ذلك بعدم القدرة على الوقوف أمام أهوائه.

ومن هنا يُبيّن القرآن الكريم تارة قصة النبي يوسف عليه السلام ووقوفه أمام عواصف الشهوة وفي تلك الظروف الصعبة، ليكون حُجّة على الذين افتتنوا بسبب الشهوات.



» يُبيّن القرآن الكريم قصة النبي يوسف عليه السلام ووقوفه أمام عواصف الشهوة وفي تلك الظروف الصعبة، ليكون حُجّة على الذين افتتنوا بسبب الشهوات.



ويُبيّن تارة قُصّة إمرأة فرعون التي صمدت مؤمنةً في وجه فرعون، رغم كل الإغراءات، لتكون حُجّة على كلّ من يخضع للطاغوت.

المقاييس المادّية

وتارة يذكّرنا بصمود موسى عليه السلام واستقامته أمام جبروت فرعون، وكيف أنّ الأخير كان يعتمد على المقاييس المادّية في اثبات أحقيته.

وكما سبق، فإنّ سورة الزُّخرف المباركة تُبيّن زيف المقاييس المادّية وأنّها ليست معياراً في صلاح الافراد، أو مقياساً للنجاح والفشل.

وجُزءٌ من أبعاد اسم السورة ايضاً يدلّ على معاني هذه السورة

الكريمة كما قـــال تعالى: ﴿وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1]. لأنّ الحيـــاة الدُنيا زائلة، فلا قيمة حقيقية لما فيها.

وفي هذه الآية نقرأ تشبّث فرعون بهذه المعايير المادّية:

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾

ممّا يدلّ على أنّ الخطاب كان مُعلناً وعلى الملأ، حيث:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾

وتمثّل مصر الحضـــارة الأولى في العالم ذلك اليـــوم، وهكذا أثار فيهم النخوة والعصبية، حيث ناداهم بأنّهم قومه.

﴿وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾

حين ندرس التاريـــخ نجد أنّ الحضارات التي كانت تعتمد على الماء كان يســـودها نوعٌ من الاســـتقرار، لأنّ القيادة السياســـية كانت تقوم بتقسيم المياه على الأراضي، مما يؤدّي الى اخضاع الناس، ومن هنا ربما يحمل الخطاب تهديداً مُبطّناً لمن لا يخضع لفرعون بحرمانه من الماء.

» إنّ الحضارات التي كانت تعتمد على الماء كان يسودها نوعٌ من الاستقرار، لأنّ القيادة السياسية كانت تقوم بتقسيم المياه على الأراضي، مما يؤدّي الى اخضاع الناس.

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

لم يقل فرعون: أفلا تعقلون، ذلك لأنّ دعوته لهم برؤية الظاهر، أمّـــا إذا كان يدعوهم للتفكير والتعقّل، فإنهم كانوا يكتشـــفون بشريّة

(١)- سورة الزخرف، الآية٣٥.

فرعون، ولعرفوا أنّ ملك مصر لله ثم لمن عمّرها، وأنّ فرعون يستحقّ منهم أشدّ العذاب على اســتغلالهم ماليّاً، والتسلّط عليهم سياسيّاً بلا تخويل منهم، ولا تفويض من عنــد الله، فكيف يطالبهم بأجرٍ، ويمنّ عليهم؟ أ لأنّه طغى عليهم، وانتهب ثرواتهم؟



بصائر وسُنَن

في داخل الانســان قوتّان متنازعتان: إحداهما تهوي به الى درك الجحيم والأخرى ترفعه الى أعلى علّيين. فمن جهة نجد لديه النزعات الخاطئــة، كنزعة الربوبيّة، والأهواء المضلّلة، ووســاوس الشــيطان الرجيم، ومن جهة أخرى يملك الانسان مرتكزات أثقل من الجبال، كالعقل، والإرادة، والايمان.



لا يكاد يبين

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

***

تفصيل القول

كعادة الطُغاة بدأ فرعون بالتقليل من شأن النبي الذي أُرسل اليه وهو موسى عليه السلام، وأخذ يُقيّم حقائق رسالة الله بالمعايير المادّية الزائفة، وكيف أنّ النبي موسى عليه السلام كان مستضعَفاً عندهم، وأنّه لا يفصح قولاً، ولا يملك شرفا.

وربّنا تعالى بحكمته لم يجعل الانبياء في درجة الكمال المادّي ليمتحن الناس، فقد جاء النبي موسى عليه السلام الى فرعون وعليه ثياب الرُعاة، وبيده عصاه، ولم تبد عليه نظرة المتنعّم، ولذلك قال فرعون محتقراً إياه:

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾

مهينٌ باعتبار عدم إمتلاكه لشيء من الاسـباب المادّية، وأيضاً لأنّه من قوم مستضعَفين، وهُم بنو اسرائيل.

و تمادى في غيّه واسترسـل في الاسـتصغار بالنبي موسى عليه السلام حتّى قال:

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

لا يكاد يفصح قولاً، باعتبار العقدة التي كانت في لسانه والتي استجاب الله دعوته فرفعها عنه.



بصائر وسُنَن

لم يجعل الله تعالى أنبياءه في درجة الكمال المادي، ليمتحن الناس، فقد جاء النبي موسى عليه السلام الى فرعون وعليه ثياب الرعاة، وبيده عصاه، ولم تظهر عليه نظرة المتنعِّم.



أسورة من ذهب

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

***

من الحديث

جاء في حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«وَلَقَدْ دَخَلَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ ومَعَهُ أَخُوهُ هَارُونُ عليهما السلام عَلَى فِرْعَوْنَ وعَلَيْهِمَا مَدَارِعُ الصُّوفِ وبِأَيْدِيهِمَا الْعِصِيُّ، فَشَرَطَا لَهُ إِنْ أَسْلَمَ بَقَاءَ مُلْكِهِ ودَوَامَ عِزِّهِ.

فَقَالَ: أَ لَا تَعْجَبُونَ مِنْ هَذَيْنِ، يَشْرِطَانِ لِي دَوَامَ الْعِزِّ وبَقَاءَ الْمُلْكِ وهُمَا بِمَا تَرَوْنَ مِنْ حَالِ الْفَقْرِ والذُّلِّ؟ فَهَلَّا أُلْقِيَ عَلَيْهِمَا أَسَاوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ؟ إِعْظَاماً لِلذَّهَبِ وجَمْعِهِ واحْتِقَاراً لِلصُّوفِ ولُبْسِهِ، ولَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الذِّهْبَانِ ومَعَادِنَ

الْعِقْيَانِ ومَغَارِسَ الْجِنَانِ وأَنْ يَحْشُـرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّـمَاءِ ووُحُوشَ الْأَرَضِينَ لَفَعَلَ، ولَوْ فَعَلَ لَسَـقَطَ الْبَـلَاءُ وبَطَلَ الْجَزَاء، واضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ، ولَمَا وَجَبَ لِلْقَابِلِينَ أُجُورُ الْمُبْتَلَيْنَ، ولَا اسْـتَحَقَّ الْمُؤْمِنُونَ ثَوَابَ الْمُحْسِنِين»[1].

تفصيل القول

إنَّ «**اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ رُسُلَهُ أُولِي قُوَّةٍ فِي عَزَائِمِهِمْ وضَعَفَةً فِيمَا تَرَى الْأَعْيُنُ مِنْ حَالاتِهِم**» كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام[2]، وذلك ليكون الايمان بالله، واتّباع رسله، والتصديق بكتبه، اموراً له خاصّة لا تشوبها من غيره شائبة.

وهكذا احتجّ فرعون قائلاً:

﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾

الأسورة جمع سوار.

﴿أو جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾

فإمّا أن يكون له ثروة أو تكون له قوّة.

» لم يجعل الرب الحج نُزهة في منطقة سهلة، بل جعل بيته في الجبال الوعرة، ليأتي اليه الناس من كلّ فجٍّ عميق، وليتبيّن خلوص الحاج الى الله تعالى.

وإذا كان الأمر كما أراد فرعون لبطلت سُنّة الامتحان، تماماً كالحج لم يجعله الرب نُزهة في منطقة سهلة، بل جعل بيته في الجبال الوعرة، ليأتي اليه الناس من كلّ فجٍّ عميق، وليتبيّن خلوص الحاج الى الله تعالى.

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٢٩١.
(٢)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٢٩٢.

وهكذا الانبياء، لــو أنّهم كانوا يملكون أســباب القوّة المادّية الظاهريــة لبطلت سُــنّة الامتحان، ولذات الســبب نجــد أنّ حياة المعصومين الاطهار كانت مصحوبة بالاضطهاد والمظلومية.



بصائر وسُنَن

جعل الله رسله أولي قوّة في عزائمهم، وضعفة فيما ترى الأعين من حالاتهم – كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام – وذلك ليكون الايمان بالله، واتباع رســله، والتصديق بكتبه، أموراً له خاصّة لا تشــوبها من غيره شائبة.



فاستخفّ قومه فاطاعوه

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

***

من الحديث

عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام، قال:

«مَرَّ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عليهما السلام عَلَى قَرْيَةٍ قَدْ مَاتَ أَهْلُهَا وطَيْرُهَا ودَوَابُّهَا. فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَمُوتُوا إِلَّا بِسَخْطَةٍ، ولَوْ مَاتُوا مُتَفَرِّقِينَ لَتَدَافَنُوا.

فَقَالَ الْحَوَارِيُّونَ: يَا رُوحَ اللَّهِ وكَلِمَتَهُ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحْيِيَهُمْ لَنَا فَيُخْبِرُونَا مَا كَانَتْ أَعْمَالُهُمْ فَنَجْتَنِبَهَا. فَدَعَا عِيسَى عليه السلام رَبَّهُ، فَنُودِيَ مِنَ الْجَوِّ أَنْ نَادِهِمْ.

فَقَامَ عِيسَى عليه السلام بِاللَّيْلِ عَلَى شَرَفٍ مِنَ الْأَرْضِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ. فَأَجَابَهُ مِنْهُمْ مُجِيبٌ: لَبَّيْكَ يَا رُوحَ اللَّهِ وكَلِمَتَهُ.

فَقَالَ: وَيْحَكُمْ مَا كَانَتْ أَعْمَالُكُمْ؟ قَالَ: عِبَادَةُ الطَّاغُوتِ وحُبُّ الدُّنْيَا مَعَ خَوْفٍ قَلِيلٍ وأَمَلٍ بَعِيدٍ وغَفْلَةٍ فِي لَهْوٍ ولَعِبٍ.

فَقَالَ: كَيْفَ كَانَ حُبُّكُمْ لِلدُّنْيَا؟ قَالَ: كَحُبِّ الصَّبِيِّ لِأُمِّهِ، إِذَا أَقْبَلَتْ عَلَيْنَا فَرِحْنَا وسُرِرْنَا، وإِذَا أَدْبَرَتْ عَنَّا بَكَيْنَا وحَزِنَّا.

قَالَ: كَيْفَ كَانَتْ عِبَادَتُكُمْ لِلطَّاغُوتِ؟ قَالَ: الطَّاعَةُ لِأَهْلِ الْمَعَاصِي»[1].

تفصيل القول

لقد جرّد فرعون قومه من ثقل العقل والإيمان بما أثار فيهم من حُبّ الشهوات الرخيصة، فأطاعوه، لأنّ الإنسان حينما يملك العقل والإيمان فإنّه سيكون رصيناً لا تحرّكه العواصف، ولا تزيله القواصف، بينما إذا فقده كان كريشة تتقاذفه الرياح.

» إنّ الإنسان حينما يملك العقل والإيمان فإنّه سيكون رصيناً لا تحرّكه العواصف، ولا تزيله القواصف، بينما إذا فقده كان كريشة تتقاذفه الرياح.

لقد كان فرعون - كجميع الطغاة - يعرف أن منطق العقل والعلم والفطرة يؤيّد موسى عليه السلام، لذلك إنحرف عن المنطق الى إثارة العصبيّات، والتلويح بالإرهاب والإغراء، وبالتالي إزاغة الناس عن عقولهم الرصينة الى شهواتهم الخفيفة.

(١)- الكافي، ج٢، ص٣١٨.

يقول تعالى:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوه﴾

في صراع الفجور والتقوى في قلب الانسان يتسامى الانسان أو يتسافل تدريجياً، فقد يفسق المرء في كذبة، ثم ينحدر في سرقة، أو إعتداء حتّى يصبح من الفاسقين، وفي النهاية يكون من انصار فرعون.

وبالمقابل مَن يُقيم الصلوات ويواجه الشهوات يتسامى حتّى يصل الى الاخلاص، وبالطبع فإنّه لا يتّبع فرعون وأشباهه من الطغاة. ومن هنا يقول الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾

إذ إنّ الفسق تراكم حتّى هوى بهم الى اسفل سافلين.



بصائر وسُنَن

في صراع الفجور والتقوى في قلب الانسان يتسامى الانسان أو يتسافل تدريجياً، فقد يفسق المرء في كذبة، ثم ينحدر في سرقة، أو إعتداء حتّى يصبح من الفاسقين، وفي النهاية يكون من انصار فرعون.



انتَقمنا منهم

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴿٥٥﴾﴾.

***

من الحديث

عن إبراهيم بن محمد الهمداني، قال: قلت لأبي الحسن علي بن موسى الرضا عليه السلام: لأيّ علة أغرق الله عزّ وجلّ فرعون وقد آمن به وأقرّ بتوحيده؟ قال:

«إِنَّهُ آمَنَ عِنْدَ رُؤْيَةِ الْبَأْسِ، وهُوَ غَيْرُ مَقْبُولٍ، وذَلِكَ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِي السَّلَفِ والْخَلَفِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وكَفَرْنا بِما كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا﴾»[1].

(١)- علل الشرائع، ج١، ص٩.

تفصيل القول

في آيــة واحدة يُبــيّن ربّنا تعالى أربع حقائق عــن عاقبة فرعون وقومه، كلّ حقيقة أكبر من أختها.

يقول تعالى:

﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾

الأســف يعنــي الحُزن حين يَحــدُث شيء مُحزِن، والله تعالى لا يتأسّــف، ولكنّ الواقع يبعث على الأسف. ثم يقول ربنا المُتعال:

» الحُكم لله تعالى يهبه لمن يشاء من عباده، ولا يحقّ للناس جعل المقاييس المادّية معياراً لاختيار طاغوت يطيعونه من دون الله.

﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾

ماذا تعني كلمة الانتقام؟

حين يقوم الانسان بجريمة يُنتقم منه عقاباً على فعله، فالعقاب يُعتبر كــردّة فعل. فربّنا تعالى خلق الكون للانســان، وبيّن لــه خارطة الطريق، وحين يتنكّب الانســان عن الصراط القويم فإنّه يُخالف الربّ المتعال، ويتحوّل الفعل ذاته الى نقمة بالنسبة اليه، ولذلك ربّنا تعالى يقول: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

والانتقام كان بصورة الغرق الذي يُعتبر من أشدّ أنواع الموت، لأنّ الغريق يموت تدريجياً.

فكــم هي عظيمة جريمتهم حتّى أنّ الــرب المُتعال وهو أرحم الراحمين ينتقم منهم ويُهلكهم بأشدّ أنواع الموت:

﴿فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

فكان الغرق عقاب الجميع وليس فرعون وحده. فالآلاف من الرجال، والنساء، والملأ، وعامة الناس، والعلماء، والجُهّال من أتباع فرعون، كلّهم شُملوا بعذاب الغرق.

هذه كلمات أربع جاءت كالصاعقة لِعِظم جريمة اولئك، حيث استحقّوا العذاب، فمستوى العقوبة تأتي من طبيعة الجريمة، فليس عقوبة الكذب كعقوبة الزنا، وهكذا الجريمة التي ارتكبها اهل مصر بعبادتهم لفرعون كانت جريمة كُبرى تستحق ذلك العذاب الأليم.

فالحُكم لله تعالى يهبه لمن يشاء من عباده، ولا يحقّ للناس جعل المقاييس المادّية معياراً لاختيار طاغوت يطيعونه من دون الله.



بصائر وسُنَن

حين يقوم الانسان بجريمة يُنتقم منه عقاباً على فعله، فالعقاب يُعتبر كردّة فعل. فربّنا تعالى خلق الكون للانسان، وبيّن له خارطة الطريق، وحين يتنكّب الانسان عن الصراط القويم فإنّه يُخالف الربّ المتعال، ويتحوّل الفعل ذاته الى نقمة بالنسبة اليه.



فجعلناهم سلفاً

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴿٥٦﴾﴾.

***

من الحديث

عن الحســن الصيقل، قال: ســألت أبا عبد الله عليه السلام عما يروي الناس أنَّ تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قلت: كيف يتفكر؟ قال:

«يَمُرُّ بِالْخَرِبَةِ أَوْ بِالدَّارِ، فَيَقُولُ: أَيْنَ سَــاكِنُوكِ؟ أَيْنَ بَانُوكِ؟ مَا لَكِ لَا تَتَكَلَّمِينَ؟»[1].

تفصيل القول

يتمنّى الانســان عادة أن يحصل على ذرّيّة طيّبة ليبقى ذكره بعد وفاته، لكن البعض قد يموت دون أن يذكره ذاكر، وأسوء منه هو مَنْ

(١)- الكافي، ج٢، ص٥٤.

تلحقــه اللعنات بعد موته، كفرعون الذي أصبح لعنة التاريخ. هذا في ظاهر الحياة الدُنيا، أمّا في الآخرة فقد أدخلوا ناراً خالدين فيها وساءت مصيراً.

ولذلك يُبيّن القرآن الكريم هذه الحقيقة فيقول:

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾

ليس فرعون فحســب، إنّما كلّ الذين اتّبعوه أيضاً وخضعوا له كانوا سلفاً ولم يبقَ لهم ذكر، ويضرب القرآن بهم مثل السوء حتى يعتبر الآخرون من مصائرهم.



بصائر وسُنَن

يتمنّى الانســان عادة أن يحصل على ذرّية طيّبة ليبقى ذكره بعد وفاته، لكــن البعض قد يموت دون أن يذكره ذاكر، وأســوء منه مَنْ تلحقه اللعنات بعد موته كفرعون الذي اصبح لعنة التاريخ.



قومك منه يصدّون

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾.

***

من الحديث

عن الإمام علي عليه السلام، قال:

«جِئْتُ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وهُوَ فِي مَلَإٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَنَظَرَ إِلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنَّمَا مَثَلُكَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَثَلِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، أَحَبَّهُ قَوْمٌ فَأَفْرَطُوا وأَبْغَضَهُ قَوْمٌ فَأَفْرَطُوا. فَضَحِكَ الْمَلَأُ الَّذِينَ عِنْدَهُ وقَالُوا: انْظُرُوا كَيْفَ يُشَبِّهُ ابْنَ عَمِّهِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ. قَالَ فَنَزَلَ الْوَحْيُ: ﴿وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون﴾»[١].

(١)- بحار الأنوار، ج٣٥، ص٣٢٢.

تفصيل القول

في مقابل مَثَل السوء الذي ضُرب عن فرعون ومن تبعه، يضرب لنا القرآن الكريم مثلاً حسناً عن عيسى ابن مريم عليه السلام الذي كان مثال الزُهد والتقوى.

ففي حين كان يمتلك فرعون أسباب القوّة المادّية والمُلك، إلّا أنّه أصبح لعنة التاريخ، بينما في المقابل لم يملك النبي عيسى عليه السلام مالاً ولا عشيرة، وقد ولدته أمّه من غير أب، وكان سائحاً لا مأوى له، لكنّه أصبح قدوة على مرّ التاريخ، ويحترمه اليوم اكثر من نصف البشرية.

فأيّ المثلين ينبغي أن يُحتذى به؟

لقد رفع الله شأن ابن مريم، فجعله يُكلّم الناس في المهد صبيّاً، وآتاه الكتاب والحكمة، وجعله مباركاً حيث ما كان، وأكرمه الله بالزهد في الدنيا، والخلق الرفيع.

ويكفي ذلك درساً للأجيال: أنّ القيم المادّية ليست معياراً للرفعة والكمال، وفي ذلك حُجّة بالغة على قُريش أن يؤمنوا برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم دون الاكتراث بالمعايير الباطلة، يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾

لكنّ قريشا صدّت عن هذا المثل السامي.

لماذا؟

أوّلا: لأنّهم لم يؤمنوا بتلك القيم العليا التي جاء بها النبي عيسى عليه السلام، إنّما عبدوا آلهة تُمثّل الشهوات والأماني الزائلة، وزيّنها

قرناؤهم من شـــياطين الجنّ والإنس في أعينهم، حتى قالوا: ﴿أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؟ كما في الآية التالية.

ثانيا: لأنّ إيمانهم بعيســى بــن مريم عليه السلام مثــال الفضائل كان يدعوهم الى الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنّهما على نهج واحد، فصدّوا عن ذلك ليصدّوا عن الايمان برسول الاسلام.



بصائر وسُنَن

في حين كان يمتلك فرعون أسباب القوّة المادّية والمُلك، الّا أنّه أصبح لعنة التاريخ، بينما في المقابل لم يملك النبي عيســى عليه السلام مالاً ولا عشــيرة، وقد ولدته أمّه من غير أب، وكان ســائحاً لا مأوى له، لكنّه أصبح قدوة على مرّ التاريخ، ويحترمه اليوم اكثر من نصف البشرية.



بل هم قوم خصمون

﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴿٥٨﴾﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«مَا ضَلَّ قَوْمٌ [بَعْدَ أَنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ] إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ»[1].

تفصيل القول

زعم المشركون أنّ آلهتهم خيرٌ من عيسى بن مريم، لأنّها تمثّل الثروة والقوّة والتقاليد المتوارثة، بينما عيسى عليه السلام كان مثالاً للزهد والطهر والفضيلة.

(١)- منية المريد، ص١٧١.

والظاهر إنّ المقصود بآلهتهم تلك القيادات الفاسدة من قريش، او التي كانت في الطائف من قبيلة ثقيف، حيث إنّهم قارنوا بينها وبين النبي عيسى عليه السلام. وهُم يعلمون في ضمائرهم أنّ عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتهم، ولكنّهم لا يريدون الإذعان بهذه الحقيقة التي تنسف أساس بُنيانهم الجاهلي، ولذلك تراهم يجادلون فيها:

﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾

شأنهم شأن كل الجاهليين عبر التاريخ الذين يُكفّرون الناس بإسم الدين مستخدمين الاعلام المُزيّف ليصدّوا عن الحق.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

كلّما ابتعدت أمّة عن قيم الوحي كلّما زادت حاجتها النفسية الى الخصام والجدل، أو ليس الإنسان يمارس الجدال من أجل دحض الحق؟ كما قال ربنا: ﴿وَجادَلُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[1].

أَوليسوا قد هبطوا الى حضيض الباطل؟ فهم يبتدعون لكلّ حقّ باطلاً ليجادلوا به لدحض الحق.



بصائر وسُنَن

زعم المشركون أنّ آلهتهم خيرٌ من عيسى ابن مريم، لأنّها تمثّل الثروة والقوّة والتقاليد المتوارثة، بينما عيسى عليه السلام كان مثالاً للزهد والطهر والفضيلة.

(١)- سورة غافر، الآية ٥.



عبدٌ أنعمنا عليه

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

***

من الحديث

يصف أمير المؤمنين عليه السلام النبي عيسى عليه السلام، فيقول:

«وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام: فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ، ويَلْبَسُ الْخَشِنَ، ويَأْكُلُ الْجَشِبَ، وكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ، وسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ ومَغَارِبَهَا، وفَاكِهَتُهُ ورَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ، ولَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ، ولَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، ولَا مَالٌ يَلْفِتُهُ، ولَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ وخَادِمُهُ يَدَاه»[1].

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، خطبة ١٦٠، ص٢٢٧.

تفصيل القول

في إطار الحديث عن محور السـورة، بأنّ زُخـرف الحياة الدُنيا ليس مقياسـاً للحقّ والباطل، وأنّ على الإنسان أن يقتلع جذور حُبّ الدُنيا من قلبه، في هذا الاطار يُبـيّن لنا القرآن الكريم أمثلة لبيان هذه الحقيقة، فضرب لنا مثل سَـوء في فرعون، وفي المقابل ضَرَب لنا مثلاً حسناً في شخصية النبي عيسى عليه السلام.

ولعـلّ أروع ما في شـخصية ذلـك النبي العظيم هو أنّه كان عبداً لله، لأنّ تدرّج الانسـان في مسـتويات العبودية لله هو تدرّج في الكمالات المعنويـة والقُرب من الباري عـزّ وجلّ، ولذلك نحن نشـهد لرسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بالعبودية قبل الرسالة فنقول: وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسوله.

» إنّ الانسـان كلّـما إزداد معرفـة بنفسـه أدرك مـدى ضعفـه، ولذلـك تجـد الانسـان يلتجـئ الى اللـه المُتعـال حـين الشـدائد، لأنّ الحُجـب ترتفـع حينئـذٍ.

ذلك لأنّ الانسـان كلّما إزداد معرفة بنفسه أدرك مدى ضعفه، ولذلك تجد الانسـان يلتجئ الى الله المُتعال حين الشـدائد، لأنّ الحُجب ترتفع حينئذٍ، ومن هُنا فاستشعار العبودية لله يرفع تلك الحُجب ويُقرّب الانسان من ربّه.

إذن عبودية عيسـى لربّـه كان مِعراجُه اليه، وهكـذا كُلّ من اسـتطاع أن يُكرّس مفهوم العبودية في ذاته استطاع الاقتراب من ربّه بمقدار ذلك، لذلك يقول ربّنا تعالى عن النبي عيسى عليه السلام:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾

ولعبوديته المطلقة فقد أنعم الله عليه بمقام القُرب إليه:

﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾

ومن أبرز النعم عليه أنه إنتخبه لرسالاته:

﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

ليقتدوا به، حيث إنّ الرسول - أيّ رسول - يجسّد المكرمات، فيأمر الله باتخاذ سنّته منهجاً.

وفي بني اسرائيل فشت المادية لتفرّغ الرسالة من روحها وقيمها وأهدافها المُقدّسة، وجاء عيسى بن مريم عليه السلام ليصبح مثلاً لبني إسرائيل في الزهد والترفّع عن المادّيات.



بصائر وسُنَن

لعلّ أروع ما في شخصية عيسى بن مريم، ذلك النبي العظيم، هو أنّه كان عبداً لله، لأنّ تدرّج الانسان في مستويات العبودية هو تدرّج في الكمالات المعنوية والقُرب من الباري عزّ وجلّ.



ملائكة في الارض

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾.

***

تفصيل القول

الدُنيا ليست في انحدار، بل هي في تصاعد.

فلا يظن الطغاة بأن وجودهم وسلطتهم هي التي تسيِّر الحياة، وأنَّ كل شيء سينهار من دونهم، ويمنّون على الله بذلك، والحال أنّ هلاك الطُغاة لا يوقِف مسيرة الحياة، بل يأتي الله بأحسن منهم كما يُبيّن القرآن الكريم، وهذه سُنّة الربّ المُتعال، وإذا كان البشر طالحين يُفسدون في الأرض، فإنَّ الرب المُتعال بقادر على أن يُنزّل ملائكة ليخلفوا البشر:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾

أي يخلفونكم في الأرض.



بصائر وسُنَن

هلاك الطُغاة لا يوقِف مســيرة الحياة، بل يأتي الله بأحسن منهم كما يُبيّن القرآن الكريم.



وإنّه لعلمٌ للساعة

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَّ عَلَيَّ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ - الى أن قال -: ﴿اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ صِرَاطَ الْأَنْبِيَاءِ، وهُمُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم»[١].

تفصيل القول

كيف كان النبي عيسى عليه السلام مثلاً لبني اسرائيل؟

(١)- بحار الأنوار، ج٨٢، ص٢١، عن: مجمع البيان، ج١، ص٣١.

الجواب على ذلك هو أنّ النبي عيسى عليه السلام كان مثلاً بسلوكه وأخلاقه وبرسالته، ومثلاً بولادته حيث وُلد من غير أب، وكان في حياته الكثير من المعاجز.

فهو إذن آية من آيات الله تدلّنا على آفاق معرفة الرب وقدرته سبحانه وتعالى، وكذلك تدلّنا على معرفة يوم القيامة، لأنّ إشكالية البعث الجديد موجودة دائماً في ذهن الانسان، وهي نابعة من جهل الانسان بقُدرة الربّ عزّ وجل. ولذلك يقول ربّنا:

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾

فكون الانسان الذي يُولد من غير أب، ولا يمتلك أسباب القوّة المادّية، يُرفع مكاناً علياً دليلٌ على قُدرة الله المُتعال، وربّنا المُتعال كما هو قادرٌ على خلق عيسى من غير أب، قادرٌ على بعث الخلق أيضاً بعد أن يصيروا تراباً:

» قد يكون الشك حالة طبيعية عفوية تحدث عند الانسان بسبب الجهل، وقد يكون منشؤه التشكيك وتكذيب ما يسمعه أو يُبصره، وهذا النوع من الشك مرفوض.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾

فلا تشكّوا بالساعة.

والشكّ نوعان:

فقد يكون الشك حالة طبيعية عفوية تحدث عند الانسان بسبب الجهل، وقد يكون منشؤه التشكيك وتكذيب ما يسمعه أو يُبصره، وهذا النوع من الشك مرفوض.

﴿وَاتَّبِعُونِ﴾

بعــد رفض التشــكيك، يدعو النبي - بــل كل الأنبياء عليهم السلام- أقوامهم الى إتباعهم، لأنّ:

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

فكلُّ الانبياء دعونا الى صراطٍ واحد وهو الصراط المستقيم.



بصائر وسُنَن

كــون النبي عيســى عليه السلام الذي يُولد من غــير أبٍ، ولا يمتلك أسباب القوّة المادّية، يُرفع مكاناً علياً دليلٌ على قُدرة الله المُتعال، وربّنا المُتعال كما هو قادرٌ على ذلك، قادرٌ على بعث الخلق أيضاً.



لا يصدنّكم الشيطان

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾.

***

من الحديث

جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إِنَّ الشَّــيْطَانَ يُسَــنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ، ويُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ دِينكُمْ عُقْدَةً عُقْــدَةً، ويُعْطِيَكُمْ بِالْجَمَاعَــةِ الْفُرْقَةَ، وبِالْفُرْقَةِ الْفِتْنَــةَ، فَاصْدِفُوا عَنْ نَزَغَاتِهِ ونَفَثَاتِه»(١).

تفصيل القول

السـبب الذي صدّ الناس عن الايمان بالأنبياء، هو وجود من يصدّهم عن الصراط المستقيم، وذلك هو الشيطان الرجيم الذي عهد

(١)- نهج البلاغة، خطبة ١٢١، ص ١٧٨.

الينا ربّنا أن لا نتّبعه وأنّه لنا عدّوٌ مُبين.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[1].

وحينما يعي الانسان أنَّه يواجه عدوّاً مبيناً وأنّ طريقه مليء بالأشواك والصدود فلا ريب أنّه يستعدّ نفسياً لمواجهة الصدود بإرادته وللتحرّز من هذا العدو.

ولقد أقسم الشيطان بعزّة الرب أن يغوي جميع البشر، ولذلك فهو يجعل بينهم وبين الصراط المُستقيم حواجز التكبّر والعزّة بالإثم، أو حواجز العِرق واللغة، وهكذا يقول تعالى:

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾

وقد تكون نفس الانسان أو صديقه هو شيطانه الذي لا يفتأ يصدّه عن الصراط المستقيم.

» حينما يعي الانسان أنَّه يواجه عدوّاً مبيناً وأنّ طريقه مليء بالأشواك والصدود فلا ريب أنّه يستعدّ نفسياً لمواجهة الصدود بإرادته وللتحرّز من هذا العدو.

إنّ الشيطان - وما فتأ حتى الآن - يجعل بين المجتمع وبين الرسل حواجز من الشائعات والشُبهات، وهكذا تجد أجهزة الطاغوت يشوّهون صور الرُسل والرساليين.

﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

وقد يأتي الشيطان بصفة الناصح، فهو يمكُر، ويكيد، ويزيّن، ويغرّ، ويأتي للمرء من بين يديه ومن خلفه، وبالتالي إنّه قد عقد العزم

(١)- سورة يس، الآية ٦٠.

على إغواء أبناء آدم.



بصائر وسُنَن

إنّ الشـــيطان – وما فتأ حتى الآن – يجعل بـــين المجتمع وبين الرسل حواجز من الشائعات والشُبهات، وهكذا تجد أجهزة الطاغوت يشوّهون صور الرُسل والرساليين.



جئتكم بالحِكمة

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾.

***

من الحديث

من حِكم النبي عيسى عليه السلام أنّه قال:

«بِحَقٍّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَرْوَاحَ الشَّيَاطِينِ مَا عُمِّرَتْ فِي شَيْءٍ مَا عُمِّرَتْ فِي قُلُوبِكُمْ. وإِنَّمَا أَعْطَاكُمُ اللَّهُ الدُّنْيَا لِتَعْمَلُوا فِيهَا لِلْآخِرَةِ، ولَمْ يُعْطِكُمُوهَا لِتَشْغَلَكُمْ عَنِ الْآخِرَةِ. وإِنَّمَا بَسَطَهَا لَكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنَّهُ أَعَانَكُمْ بِهَا عَلَى الْعِبَادَةِ، ولَمْ يُعِنْكُمْ بِهَا عَلَى الْخَطَايَا. وإِنَّمَا أَمَرَكُمْ فِيهَا بِطَاعَتِهِ ولَمْ يَأْمُرْكُمْ فِيهَا بِمَعْصِيَتِهِ. وإِنَّمَا أَعَانَكُمْ بِهَا عَلَى الْحَلَالِ ولَمْ يُحِلَّ لَكُمْ بِهَا الْحَرَامَ. وإِنَّمَا وَسَّعَهَا لَكُمْ لِتَوَاصَلُوا فِيهَا ولَمْ

يُوَسِّعْهَا لَكُمْ لِتَقَاطَعُوا فِيهَا»[1].

تفصيل القول

لا يبعث الله رسولاً الّا بحُجّةٍ بالغة، ولذلك يستحقّ الذين يكفرون به العذاب الأليم، ولا زال السياق القرآني يُحدّثنا عن النبي العظيم عيسى بن مريم عليه السلام فيقول:

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾

الحكمة محتوى الرسالات

الحِكمة محتوى رسالة النبي عيسى عليه السلام وهي محتوى جميع الرسالات الالهية.

ونعني بالحِكمة خلفية الحُكم التي نفهم بها المزيد من الأحكام الشرعية، فالنبي عيسى عليه السلام جاء بالحكمة، ورسولنا الأكرم جاء بالحكمة أيضاً حيث قال ربّنا عزّ وجلّ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[2].

ولا زالت حِكَم النبي عيسى عليه السلام تؤثّر في العالم. ثمّ قال النبي عيسى عليه السلام كما يبيّن القرآن الكريم:

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾

يبدو أنّ النبي عيسى عليه السلام بُعث لتصحيح مسيرة المؤمنين بالتوراة، لحدوث بعض الفجوات بعد النبي موسى عليه السلام ولاختلاف

---

(١)- بحار الأنوار، ج ١٤، ص٣١٦.
(٢)- سورة البقرة، الآية١٢٩.

الناس في الأحكام الشرعية، فالدين قائمٌ على الشريعة التي هي الاطار العام له، وعلى الامام والقائد الذي يمثّل نظام الحياة:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

فالتقوى تمثّل جانب الشريعة، والطاعة تمثّل جانب الامام.



بصائر وسُنَن

١- الحِكمة هي محتوى جميع الرسالات الإلهية، وتعني الحِكمة: خلفية الحُكم التي بها نفهم المزيد من الأحكام الشرعية.

٢- الدين قائم على (الشريعة) التي هي الإطار العام له، و(الإمام) الذي يمثل نظام الحياة.



هذا صراط مستقيم

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦٤)﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن سيد العابدين علي بن الحسين عليهما السلام، قال:

«لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وبَيْنَ حُجَّتِهِ حِجَابٌ، فَلَا لِلَّهِ دُونَ حُجَّتِهِ سِتْرٌ. نَحْنُ أَبْوَابُ اللَّهِ، ونَحْنُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، ونَحْنُ عَيْبَةُ عِلْمِهِ، ونَحْنُ تَرَاجِمَةُ وَحْيِهِ، ونَحْنُ أَرْكَانُ تَوْحِيدِهِ، ونَحْنُ مَوْضِعُ سِرِّهِ»[١].

تفصيل القول

الجميع يدّعي أنّه على الصراط المستقيم، فأيّ صراط هو الحق؟

(١)- معاني الأخبار، ص٣٥.

سؤال هام يرتبط بمسير الانسان ومصيره، لأنّ سير الانسان بلا هُدى لا يزيده الّا بُعداً، ومن الناس من يعيش عشرات السنوات ثمّ يكتشف أنّه على ضلال، ولقد قال ربّنا عزّ وجل: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

فقبل التحرّك إذن لابدّ من معرفة الطريق، ومن هنا تجد خلاصة القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[2]. ومع ذلك تجد الناس يسيرون بغير هُدى وهُم في ضلال بعيد.

» إنّ سير الانسان بلا هُدى لا يزيده الّا بُعداً، ومن الناس من يعيش عشرات السنوات ثمّ يكتشف أنّه على ضلال، فقبل التحرّك لابدَّ من معرفة الطريق.

العبادة صراطٌ مستقيم

ولكي نتبصّر معنى الصراط المستقيم لابدّ من التدبّر أولاً في معنى العبادة.

فهل العبادة تعني الركوع والسجود فحسب؟

كلّا، فكم من عابدٍ للطاغوت وهو دائبٌ على صلاته وركوعه وسجوده. فمعنى العبادة الخضوع التام للرب المُتعال دون شريك، لذلك يقول النبي عيسى عليه السلام حسب حكاية القرآن:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾

(١)- سورة الكهف، الآية ١٠٣-١٠٤.

(٢)- سورة الفاتحة، الآية٦.

فـما دام الله تعالى هو ربّ الجميع فلابـدّ من عبادته، وخلاصة العبـادة تتمثّل باتبّاع النبي أو الإمام الذّي نصبه الرب المتعال، كما قال في الآية السابقة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

حقيقة العبادة إذن تتجسّد بتقوى الله وإطاعة الرسول.

ولذلـك لم يقبل الله سـجود ابليس آلاف السـنين بديلاً عن السجود لحظات للنبي آدم عليه السلام.

الصراط المستقيم

» مـا دام اللـه تعـالى هـو ربّ الجميـع فلابـدّ مـن عبادتـه، وخلاصـة العبـادة تتمثّـل باتبّـاع النبـي أو الإمـام الـذّي نصبـه الـرب المتعـال.

ولمعرفـة الصراط المُسـتقيم نتأمّل الآيات ٦٤-٦٩ من سـورة النسـاء حيث يبيِّن الله تعالى ثلاثة محاور للهداية الى الصراط المستقيم:

أولاً: محـور الطاعـة للرسـول باعتباره الوسيلة الى الله:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾[(١)].

أمّا المحور الثاني فهو التسليم للرسول فيما يرتبط بالقضاء:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَـجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[(٢)].

(١)- سورة النساء، الآية ٦٤.

(٢)- سورة النساء، الآية ٦٥.

أمّا المحور الثالث فهو الجهاد في سبيل الله:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَـا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾[1].

فذلك صراط الذين أنعم الله عليهم: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّينَ والصِّدّيقينَ والشُّـهَداءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفيقاً﴾[2].



بصائر وسُنَن

حقيقة العبادة تتجسّـد بتقوى الله واطاعة الرسول، وذلك هو الصراط المستقيم. ولذلك لم يقبل الله سجود ابليس آلاف السنين بديلاً عن السجود لحظات للنبي آدم عليه السلام.

(١)- سورة النساء، الآية ٦٦-٦٨.

(٢)- سورة النساء، الآية٦٩.



فاختلف الاحزاب

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعُصِّبَ لَهُ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِيمَانِ مِنْ عُنُقِهِ»[1].

تفصيل القول

التحزّب عقبةٌ تحول دون إيمان الانسان بالقيادة الربّانية، وهكذا

(١)- الكافي، ج٢، ص٣٠٧.

يقول القرآن الكريم:

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾

فحينما يصبح الرجال معايير للحق، وتتحوّل العصبية محور الحق بعد أن كان الحق محور العصبية، حينذاك يُحجب الانسان عن التسليم للحق.

فالامّة الاسلامية لا زالت بخير ما دامت متمسِّكة بمحورية الحق، لكنّها حين تفقد هذه المحورية تجد أبناءها مُختلفين باختلاف ذواتهم ومصالحهم.



» عملُ الانسان خليطٌ من الخير والشر، ولذلك علينا أن نسعى جاهدين في تزكية أنفسنا من الأنانيات والحزبيّات الباطلة لكي لا نبتلي بعاقبة السوء.



وتعني كلمة (مِنْ بَيْنِهِمْ) أي إنَّ إختلافهم نابعٌ من خلافاتهم وعصبياتهم وليس اختلافاً بين الحق والباطل.

وكانت عاقبتهم قوله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

عملُ الانسان - عادةً - خليطٌ من الخير والشر، لكنّ هؤلاء المختلفين بسبب تحزّبهم الباطل لا تنفعهم حسناتهم، وهُم مصداق قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾[1].

ولذلك علينا أن نسعى جاهدين في تزكية أنفسنا من الأنانيات

(١)- سورة الفرقان، الآية ٢٣.

والحزبيّات الباطلة لكي لا نبتلي بعاقبة السوء.



بصائر وسُنَن

١- حينما يصبح الرجال معايير للحق، وتتحوّل العصبية محور الحق بعد أن كان الحق محور العصبية، حينذاك يُحجب الانسان عن التسليم للحق.

٢- الامّة الاسلامية لا زالت بخير ما دامت متمسِّكة بمحورية الحق، لكنّها حين تفقد هذه المحورية تجد أبناءها مُختلفين باختلاف ذواتهم ومصالحهم.



الساعة تأتي بغتة

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّـاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُـمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ٦٦﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«مِنْ أَشْرَاطِ السَّـاعَةِ: كَثْرَةُ الْقُرَّاءِ وقِلَّةُ الْفُقَهَاءِ، وكَثْرَةُ الْأُمَرَاءِ وقِلَّةُ الْأُمَنَاءِ، وكَثْرَةُ الْمَطَرِ وقِلَّةُ النَّبَاتِ»[1].

تفصيل القول

القرآن الكريم شـفاء لما في الصـدور، لأنّه ينتزع الاغلال من قلب الانسـان ويرفع عنه الحجب التي تحول بينـه وبين الاعتراف

(١)- تحف العقول، ص٥٩.

بالحقيقة.

ومن أكبر العقبات النفسية التي يُعاني منها الناس هو انتظار عاقبة السوء، بل واستعجالها من قِبَل البعض ليقول: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَليمٍ﴾[1].

فعادة الانسان أنّه يُحبّ السلامة لنفسه، لكنّ البعض - بسبب عناده وجهله - يستعجل العذاب لنفسه.

» من أكبر العقبات النفسية التي يُعاني منها الناس هو انتظار عاقبة السوء، فعادة الانسان أنّه يُحبّ السلامة لنفسه.

وقد أعطى الله حواسَّ للانسان لكي يتجنّب الأخطار الظاهرية، كذلك وهبه في داخله إحساساً يستشعر به الآخرة، فقلبه يهديه أنّ الحياة زائلة:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾

فالساعة تأتي دون سابق انذار.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

لو مات الإنسان وهو قائم يصلي أو في حالة عبادة أخرى، فطوبى له وحسن مئاب، أمّا لو كان يعمل الخبائث حين موته، أو يظلم الآخرين، فيا للخسارة العظمى! إنّ ساعة الموت ساعةٌ مصيريّة لا بدّ من الاستعداد لها دائماً، لأنّها تنزل بنا في أيّة لحظة، ولذا نجد في سورة مريم قوله تعالى: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ويَوْمَ يَمُوتُ

(١)- سورة الأنفال، الآية ٣٢.

وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾[1].

وقد قال يعقوب عليه السلام لبنيه: ﴿فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[2].



بصائر وسُنَن

لو مات الإنسان وهو قائم يصلي أو في حالة عبادة أخرى، فطوبى له وحسن مآب. أمّا لو مات وهو يعمل الخبائث، أو يظلم الآخرين، فيا للخسارة العظمى! إنّ ساعة الموت مصيريّة لا بدّ من أن نكون مستعدّين لها دائما، لأنّها تنزل بنا في أيّة لحظة.

(١)- سورة مريم، الآية ١٥.
(٢)- سورة الزخرف، الآية ١٣٢.



بعضهم لبعض عدو

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧﴾.

***

من الحديث

عن أبي عبد الله عليه السلام – في حديث – أنّه قال:

«وَاطْلُبْ مُوَاخَاةَ الْأَتْقِيَاءِ ولَوْ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وإِنْ أَفْنَيْتَ عُمُرَكَ فِي طَلَبِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ أَفْضَلَ مِنْهُمْ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ والْأَوْلِيَاءِ، ومَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ بِمِثْلِ مَا أَنْعَمَ بِهِ مِنَ التَّوْفِيقِ بِصُحْبَتِهِمْ.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾»[1].

(١)– بحار الانوار، ج٧١، ص٢٨٢.

تفصيل القول

كما ذُكر آنفاً في محور ســورة الزُخرف المباركة أنّها جاءت لتغيير القيم المادّية عند الانســان، ومن انعكاسات تلك القيم، قيمة انتخاب الصديق لدى الانسان.

حيث إنّ الخلّة قد تكون قائمة على أســاس الدُنيا، لتكون سبباً للفساد والإفســاد في الأرض. وهذه الخلّة غير دائمة، لأنّ قوامها على شيء زائل، ويتجلّى ذلك في يوم القيامة حيث تُبلى السرائر وتنكشــف الحقائق:

﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾

ليــس فقط تنفصــم الصداقــة بينهم، بل يعــادون بعضهم بعضــاً ويتّهــم بعضهم الآخر ويجعله سبباً لعمل السيئات.

» حين تقوم الخلّة على أساس التقوى، وينطلق مجموعة من الناس في تشكيل التجمّعات الايمانية، والهيئات الدينية، وأعمال الخير، فتلك صداقة دائمة.

أمّا القســم الثاني مــن الصداقات فهي التي تقوم على أســاس التقوى، وكما يقول ربّنا المُتعال عنهم: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْــرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ..﴾[1]

فحين تقوم الخلّة على أســاس التقــوى، وينطلق مجموعة من الناس في تشكيل التجمّعات الايمانية، والهيئات الدينية، وأعمال الخير، فتلك صداقة دائمة. وفي يوم القيامة قد يشفع هؤلاء بعضهم لبعض،

(١)- سورة التوبة، الآية٧١.

لذلك قال ربّنا:

﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾

ففي يوم القيامة حيث يبحث كلّ واحدٍ عن خليلٍ يشفع له: ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ * ولا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1] لا ينفع إلاّ الاخلاّء في الله.

فليس المطلوب أيّة صداقة وكيفما اتفقت، بل تلك الصداقة التي تمتدّ من الدنيا الى الآخرة.



بصائر وسُنَن

في يوم القيامة حيث يبحث كلّ واحد عن خليل يشفع له: ﴿فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ * ولا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ لا ينفع غير الأصدقاء في الله. فليس المطلوب أيّة صداقة وكيفما اتفقت، بل تلك الصداقة التي تمتدّ من الدنيا الى الآخرة.

(١)- سورة الشعراء، الآية ١٠٠-١٠١.



لا خوفٌ عليكم

﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

***

من الحديث

من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام قال:

«فَإِنَّ الْعَامِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ والْحَاكِمَ بِحُكْمِ اللَّهِ لَا وَحْشَةَ عَلَيْهِ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾»[1].

تفصيل القول

لو أردنا معرفة صحة فكرة ما، لابدّ أن ننظر الى عاقبتها، وعاقبة الأمور تتجلّى في الآخرة بأظهر صورها وأجلاها. ونحن علينا أن نجعل ذلك مقياساً لعملنا في الدنيا، فما عاقبة التقوى إلّا الجنة، وما

(١)- تحف العقول، ص ١٨٥.

نهاية الخلّة الصالحة إلّا الشفاعة.

وهكــذا فأيّ علاقــة لا تنفع في الآخرة فهي ليســت نافعة في الدنيا أيضاً. فأنت الذي تبني لنفسك قصراً في الجنة بعملك الصالح، أوتحجز لنفسك دركاً في السعير بسيئاتك.

والدنيا صورة مصغّرة عن الآخرة، فالظلم ظلمات يوم القيامة، والغــلُّ والغشّ حيّاتٌ وعقارب في نار جهنم. ففي ذلك اليوم العظيم الذي وُصف بيوم الفزع الأكبر، يأتي نداء من بطنان العرش للمُتّقين:

﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾

لا خوف عليهم من موقفٍ يدوم خمسين ألف سنة، ولا خوف عليهم من النــار، ولا حُزن عندهم ممّا فاتهــم في الدنيا، كلّا.. إنّهم لم يخــسروا فرصهم في الدنيــا حتى يحزنوا كما يحزن غيرهــم من الكفار والفجار والفاسقين، وتلك بشارة عظيمة واطمئنان في القلب للمتّقين.



بصائر وسُنَن

المتقــون في القيامة لا خوفٌ عليهم ولا هــم يحزنون، لأنهم لم يخسروا فرصهم في الحياة الدنيا حتى يحزنوا كما يحزن غيرهم من الكفار والفجّار والفاسقين.



آمنوا بآياتنا

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴿٦٩﴾﴾.

***

من الحديث

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«لَأَنْسُبَنَّ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ قَبْلِي ولَا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ بَعْدِي إِلَّا بِمِثْلِ ذَلِكَ: إِنَّ الْإِسْـــلَامَ هُوَ التَّسْلِيمُ، والتَّسْلِيمَ هُوَ الْيَقِينُ، والْيَقِينَ هُو التَّصْدِيقُ، والتَّصْدِيقَ هُوَ الْإِقْرَارُ، والْإِقْرَارَ هُوَ الْعَمَلُ، والْعَمَلَ هُوَ الْأَدَاء»[1].

تفصيل القول

بعد أن بيّن ربّنا تعالى جــزاءَ المتّقين في يوم القيامة، يُبيّن في هذه

(١)- الكافي، ج٢، ص٤٥.

الآية أبرز صفاتهم:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا﴾

فمن آيات الله تعالى في الخليقة كالشمس والقمر - حيثُ يُؤمن المتقّون بأنّها من الله تعالى - الى آيـــات القرآن الكريم التي تعكس كلّ الحقائق، وانتهـــاءً بالآيات التي تنطق وهم الأنبيـــاء والائمة الاطهار عليهم السلام، حيث إنّ المتّقين يؤمنون بكلّ هذه الآيات.

﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾

حيث تخلّصوا من ألوان الأنانية والذاتية، وتوّجهوا خالصاً الى الله المُتعال فأصبحوا مُسلمين بآيات الله المُتعال.



بصائر وسُنَن

من أبرز صفات المتقين هو إيمانهم بآيات الله في الخليقة، وبآيات الكتاب، وبالآيات الناطقة: الرسل والأئمة، وتسليمهم لكل ذلك.



أنتم وأزواجكم

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

* * *

من الحديث

عن أمير المؤمنين عليه السلام في صفة المؤمن، قال:

«فَالْإِيمَانُ مِنْهَاجُهُ، والصَّالِحَاتُ مَنَارُهُ، والْفِقْهُ مَصَابِيحُهُ، والدُّنْيَا مِضْمَارُهُ، والْمَوْتُ غَايَتُهُ، والْقِيَامَةُ حَلْبَتُهُ، والْجَنَّةُ سُبْقَتُهُ، والنَّارُ نَقِمَتُهُ، والتَّقْوَى عُدَّتُه»[1].

تفصيل القول

ويأتي النداء، ليُبشّر اولئك الذين آمنوا بالآيات وسلّموا للقيادة الشرعية ليقول:

(١)- الكافي، ج٢، ص٥٠.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾

ليس هُم فقط، بـــل وأزواجهم معهم إن كانوا مؤمنين ولكن لم تكن أعمالهم بالمستوى الرفيع، فيشـــفع بعضهم لبعض ليدخلوا الجنة جنباً الى جنب:

﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾

فقـــد كان المتقون يؤثّرون عـــلى أزواجهم ومن يُحيط بهم من عشيرتهم الأقربين، عبر التربية الصالحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وها هم اليوم يجدون فائدة هذا التأثير، فلا يفرّق بينهم وبين أزواجهم، كما أنّهم يشفعون لأزواجهم ومن اتصل بهم في الدنيـــا بعمل صالح أو علم نافع، إذ يدعون لهم فيستجاب لهم، وهذه حقيقة الشفاعة، أمّا سببها فهو تواصل الخيرات بين المؤمنين، فمن أخذ من أحـــد علماً نافعاً في الدنيا إســـتفاد منه في الآخرة، ومن اتبع إمام هدى انتفع بشفاعته، ومن خدم أهل الصلاح لصلاحهم شفعوا له عند ربّهم، وهكذا ...

» قد ورد في الروايات أنّ المؤمن إذا أُدخل الجنة يُسمح له بأنّ يُدخل معه من يريد، وأنّ المؤمن ليشفع في صديقه إذا مات قبله وأدخل الجنة.

وقد ورد في الروايات أنّ المؤمن إذا أُدخل الجنة يُســـمح له بأنّ يُدخـــل معه من يريد، وفي بعض الروايات أنّ المؤمن يشـــفع في مثل ربيعة ومضر[1]، وأنّ المؤمن ليشـــفع في صديقه إذا مات قبله وأدخل

(١)- وسائل الشيعة، ج١٦، ص١٧٩.

الجنة[1].

والحبور هو السرور والبهجة لانتهـــاء العناء، وقال البعض: إنّه لذة الســـماع، وإذا جعلنا معنى الحِبر الكرامة فإنها تعني سموّا في المقام، وفرحاً في القلب، وسروراً في العين، ولذّة في الســـماع، وزينةً وطيباً.



بصائر وسُنَن

من أخذ من أحد علماً نافعاً في الدنيا إستفاد منه في الآخرة، ومن اتّبع إمام هدى انتفع بشـــفاعته، ومن خـــدم أهل الصلاح لصلاحهم شفعوا له عند ربّهم.

(١)- انظر احاديث الشفاعة في: بحار الانوار، ج٨، ص٢٩-٦٣ (باب ٢١ الشفاعة).



ما تشتهيه الأنفس

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾.

***

من الحديث

عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«أَمَّا الْجِنَانُ الْمَذْكُورَةُ فِي الْكِتَابِ فَإِنَّهُنَّ: جَنَّةُ عَدْنٍ، وجَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ، وجَنَّةُ نَعِيمٍ، وجَنَّةُ الْمَأْوَى».

قَالَ: «وإِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وجَلَّ جِنَاناً مَحْفُوفَةً بِهَذِهِ الْجِنَانِ وإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيَكُونُ لَهُ مِنَ الْجِنَانِ مَا أَحَبَّ واشْتَهَى يَتَنَعَّمُ فِيهِنَّ كَيْفَ يَشَاءُ»[1].

(١) الكافي، ج٨، ص١٠٠.

تفصيل القول

النفس البشرية كأخبث الدواب لا يستطيع الانسان ضبطها إلّا بإرادة حديدية، وإنّما يتسلّح الانسان بهذه الإرادة حينما يمتلك رؤية صحيحة تِجاه الحياة الدُنيا والآخرة، إذ الآخرة ليست إلّا إمتداداً لهذه الدُنيا، ولابدّ للانسان المؤمن أن يُكرّس في قلبه الرؤية الايمانية، ذلك لأنّه قد يتعرّض الى فتن عمياء يصعب عليه تجاوزها دون أن تكون له تلك الرؤية الصحيحة.

البصيرة والعاقبة الحسنى

تلك الرؤية الايمانية هي التي ميّزَت الحُرّ بن يزيد الرياحي. فبالرغم من أنّه كان في معسكر ابن زياد المعادي للإمام الحسين عليه السلام، وكان قائداً عسكرياً له من المكانة والوجاهة، إلّا أنّ تخييره لنفسه بين الجنّة والنار كان دليلاً على امتلاكه البصيرة الايمانية، وهي التي جعلته يُغيّر اتّجاه حياته وبالتالي مصيره الأبدي من أسفل سافلين الى أعلى علّيين.

» الرؤية الايمانية هي التي ميّزَت الحُرّ بن يزيد الرياحي. إنّ تخييره لنفسه بين الجنّة والنار كان دليلاً على امتلاكه البصيرة الايمانية.

وهكذا علينا أن نسعى لترسيخ الرؤية الايمانية ونحن نقرأ الآيات التي تتحدّث عن عاقبة الذين آمنوا وكانوا يتّقون.

ذلك لأنّ الرؤية الايمانية التي تتعدّى حدود الدُنيا تكون باعثاً للوقوف أمام الشهوات، فترى الشاب يقف أمام عواصف الشهوة ويغضّ طرفه عن النظر الحرام مؤمّلاً ما أعدّه الله له من النعيم المقيم، مقارناً بين النظرة العاجلة التي تعقب الندم وبين تلك اللذّة الدائمة في

الآخرة ﴿والْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1].

ومــن هنا نجد الوصف المتكرر في القــرآن الكريم للآخرة من أجل أن يتركّز عند الانسان الوعي من أجل ضبط السلوك.

ففي الجنة:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾

الفرق بين أكل الانسان وغيره من الاحياء أنّ الانســان حينما يأكل يُحبّ أن يُكرم بتحسين الظرف الذي يــأكل فيه، ولذلك تجـد أنّ الجنّة يُطــاف على أهلها بصحافٍ مــن ذهب وآنيةٍ من فضّة.

» دخول الجنة يوم عيد المؤمنين، ففي الجنة يطاف على المؤمنين بصحافٍ من ذهب وأكوابٍ كانت قواريراً، وفي الجنة ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين.

ثم يوجز السياق القرآني الكلام عن الطعام:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾

دخول الجنة يوم عيــد المؤمنين، ففي الجنة يطاف على المؤمنين بصحــافٍ من ذهب وأكواب كانت قواريرا، وفي الجنة ما تشــتهي الأنفس وتلذّ الأعين.

﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

كلّ لذّات الدُنيا مُنغّصة بالموت والفناء، وفي داخل كلّ انســان صدى يُحذّره من النهاية، لكنّ المؤمنين في الجنّة ينظرون الى الموت وقد

(١)- سورة الأعلى، الآية١٧.

ذُبــح بين الصفّين فيبلغ بهم الفرح مبلغاً لــو كان الموت موجوداً لماتوا فرحاً، لكن حينئذٍ لا خوف من الموت ولا من التحوّل الى النار.



بصائر وسُنَن

١- النفـــس البشرية لا تُضبط إلا بإرادة حديدية، وهذه الإرادة لا تتوفر إلا بامتلاك رؤية صحيحة تجاه الحياة الدنيا والآخرة.

٢- الرؤيـــة الإيمانية التي تتعـــدّى حدود الدنيا تكـــون باعثاً للوقوف أمام عواصف الشهوة.



بما كنتم تعملون

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴿٧٢﴾﴾.

* * *

من الحديث

جاء في خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام:

«أَلَا إِنَّ أَخْــوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ خَلَّتَــانِ: اتِّبَاعُ الْهَوَى وطُولُ الْأَمَــلِ، أَمَّا اتِّبَاعُ الْهَــوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِــي الْآخِرَةَ.

أَلَا إِنَّ الدُّنْيَــا قَدْ تَرَحَّلَتْ مُدْبِرَةً، وإِنَّ الْآخِرَةَ قَدْ تَرَحَّلَتْ مُقْبِلَةً، ولِكُلٍّ وَاحِدَةٍ بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ ولَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ ولَا حِسَابَ وإِنَّ غَداً حِسَابٌ ولَا عَمَل»[١].

(١)- الكافي، ج٨، ص٥٨.

تفصيل القول

ما خيرٌ بخيرٍ بعـــده النار، وما شرٌ بِشرٍّ بعده الجنّة، إذن لابدّ من أن يتّخذ الانسان قراراً حاسماً ليكون من أهل الجنّة.

ومن الناس مـــن لا يمتلك قراراً نهائياً ليكـــون من أهل الجنّة ويبقى متردداً، لكنّه اذا اتّخذ قراراً حاسماً سوف يُعينه الرب المُتعال.

وهكذا يستمرّ السياق القرآني في سورة الزُخرف في بيان صفات الجنّة من أجلِ ترغيب المؤمنين، ومِن النِعَم التي يلتذّ بها أهل الجنّة هو مخاطبتهم بأنَّ ما حصلتم عليه هو من جُهدكم ونتاج عملكم:

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ولعلّ كلمة الوراثة هنا تشـــبه كلمة الشكر التي تُقال لمن عمل صالحاً، وهو يورِث بهجة روحية عنـــد اهل الجنة، وقلّما يحدّثنا القرآن عن النعم المادية في الجنة أو في الدنيا إلّا ويشـــفعها ببيان النعم المعنوية التي هي أعمق لذّةً وأدوم سروراً.



بصائر وسُنَن

ما خيرٌ بخيرٍ بعـــده النار، وما شرٌّ بِشرٍّ بعده الجنّة، إذن لابدّ من أن يتخذّ الانسان قراراً حاسماً ليكون من أهل الجنّة.



فاكهة كثيرة

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾٧٣.

***

من الحديث

قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبةٍ له:

«أَلَا فَاعْمَلُوا فِي الرَّغْبَةِ كَمَا تَعْمَلُونَ فِي الرَّهْبَةِ. أَلَا وإِنِّي لَمْ أَرَ كَالْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا، ولَا كَالنَّارِ نَامَ هَارِبُهَا»[1].

تفصيل القول

بعد أن يذكر القرآن الكريم صفة الأكل الذي يؤتى لأهل الجنّة، وكيف أنّه يؤتـى بصحافٍ من ذهب وأكوابٍ كانت قواريرا، وأنّ لهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين، يُبيّن المزيد من النعم الالهية بقوله:

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٧١.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

الفاكهة هي ما يأكله الإنسان تفكّهاً من غير أن يُعتبر غذاءً أساسياً.

ففي الجنة فاكهة كثيرة، يأكل المؤمنون منها للتنعّم واللذّة، وليس للحاجة والضرورة. وهي (فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ) تنوّعاً وعدداً، وهي لا تنفذ مهما بالغ المؤمنون في التفكّه بها، كما أنّها ليست محدودة الثمر بموسم، بل هي دانية قطوفها دائماً، ومن جانب آخر لا يمنعهم عنها ولا يمنعها عنهم مانع أبداً، فهي مباحة شرعاً، نافعة أبداً، لا شوك في أشجارها يمنعهم، ولا ارتفاع يصعّب عليهم الانتفاع بها.



بصائر وسُنَن

في الجنة فاكهة كثيرة يأكل المؤمنون منها للتنعّم واللذّة، وليس للحاجة والضرورة.



في عذاب جهنّم

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴿٧٤﴾﴾.

* * *

من الحديث

جاء في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وحَرُّهَا شَدِيدٌ، وعَذَابُهَا جَدِيدٌ. دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، ولَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ، ولَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ»[1].

تفصيل القول

بالرغم من أنّ الغالبية العظمى من المسلمين يتلون آيات القرآن الكريم، إلّا أنّ بعضهم فقط يتفاعل مع آياته، ذلك لأنّ قلوب البشر ليست سواسية في تقبّل الحقائق، فمنها ما تكون كالأرض الليّنة تستقبل

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٣٨٤.

أشـــعّة الشـــمس، لتخرج نباتها بإذن ربّها، ومنها ما تكون كالصخرة الصمّاء لا ينفذ فيها الماء.

وهكذا يســتفيد المرء مـــن الآيات القرآنية حين يتصوّر نفســه مصداقاً للآية، فإذا كان الحديث عن الجنّة تصوّر نفســـه هو المُخاطَب بها وقد يكون من أهلها، وكذلك العكس.

وبدراسة التاريخ نعي جيّداً أنّه ليس بالضرورة بقاء الإنسان في ذات المســـتوى من الايمان، فمن الناس كالزبير ابن العوام يبدأ حياته بالصلاح ثُمّ ينحرف ويســقط، ومنهم كالحُـــرّ الرياحي يتوب الى الله متابا، ويعمل عملاً خالصاً يرفعه الله بها وينجيه من عذابٍ اليم.

يقول ربّنا تعالى:

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾

مهما حاول البعض تأويل الآيـــات القرآنية في تصوير العذاب الالهي إلّا أنَّ أصداء الخوف من العذاب الموجود في ضمير الانســـان يمنع من ذلــك، وحين تغلب الصِفة النارية على النورية في الانســـان وينغمس في الإجرام فإنّ مصيره يكون الخلود في عذاب جهّنم.



بصائر وسُنَن

مهما حاول البعض تأويل الآيـــات القرآنية في تصوير العذاب الالهي إلّا أنَّ أصداء الخوف من العذاب الموجود في ضمير الانســـان يمنع من ذلــك، وحين تغلب الصِفة النارية على النورية في الانســـان وينغمس في الإجرام فإنّ مصيره الخلود في عذاب جهّنم.



كانوا هم الظّالمين

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴿٧٦﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«أَلَا وإِنَّ الظُّلْـمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وظُلْـمٌ لَا يُتْرَكُ، وظُلْمٌ مَغْفُـورٌ لَا يُطْلَبُ. فَأَمَّـا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشِّـرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْـرَكَ بِهِ﴾. وأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَـهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ. وأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً. الْقِصَاصُ هُنَاكَ شَـدِيدٌ، لَيْـسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى ولَا ضَرْباً بِالسِّيَاطِ، ولَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَه»[1].

---

(١)- نهج البلاغة (صبحي الصالح)، ص٢٥٥.

تفصيل القول

تعالى الله أن يظلم عباده، إذ بعث الله لهم أنبياء، وتعاهدهم بالنعم، وأمهلهم بأن أعطاهم الفرصة بعد الفرصة، وحين يأخذهم الجليل بالعذاب، ويكبّهم في النار بعد توغّلهم في الكفر والعصيان والتمرد، فهل هو ظالم لهم؟! كلا:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾

ونستفيد من الآية ايضاً بُطلان مذهب القدرية.

﴿وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾

لم يقل: ظلموا أنفسهم إنّما يقول: ﴿كانُوا هُمُ الظَّالِمين﴾ بحصر الظلم لذاتهم ونفيه عن الغير. فالكافر والفاسق والفاجر والمجرم إنما يظلمون أنفسهم بِبُعدهم عن صراط الله، فهم الذين يشترون عذاب جهنم باختيارهم الخاطئ طريق الضلال والسوء والإنحراف في الدنيا.



بصائر وسُنَن

تعالى الله عن ظلم عباده، إنما هم الذين يظلمون أنفسهم باختيارهم السيّء للضلال والإنحراف عن صراط الله في دار الدنيا.



ليقض علينا ربّك

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ ۝٧٧﴾.

***

من الحديث

جاء في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لكميل:

«يَا كُمَيْلُ، مَنْ لَا يَسْكُنُ الْجَنَّةَ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، وخِزْيٍ مُقِيمٍ، وأَكْبَالٍ ومَقَامِعَ وسَلَاسِلَ طِوَالٍ، ومُقَطَّعَاتِ النِّيرَانِ، ومُقَارَنَةِ كُلِّ شَيْطَانٍ. الشَّرَابُ صَدِيدٌ، واللِّبَاسُ حَدِيدٌ، والْخَزَنَةُ فَظَظَةٌ، والنَّارُ مُلْتَهِبَةٌ، والْأَبْوَابُ مُوَثَّقَةٌ مُطَبَّقَةٌ، يُنَادُونَ فَلَا يُجَابُونَ، ويَسْتَغِيثُونَ فَلَا يُرْحَمُونَ»[1].

---

(١)- بحار الأنوار، ج٧٤، ص٢٧٦.

تفصيل القول

من صِفات المؤمنـين أنّهم يُلغون حاجز الزمان بين الفعل وبين الجزاء، ويُفكّرون في الآخرة كأنّها واقعة وهم أمام ربهم يُحاسَبون وفي الجنة داخلون.

وهكذا أهل النـار يطلبون من الباري عـزّ وجلّ أن يُخفّف عنهـم يوماً من العـذاب، فيأتيهم الجواب: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُواْ بَلَى قَالُواْ فَادْعُواْ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[1].

لا يستطيع أهل النـار أن يُكلّموا الباري المُتعال، لذلك تراهم ينادون مالكاً خازن النار:

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾

إنهم يتمنون الفنـاء الأبدي ليتخلّصوا من عذاب النار، فيُحبس عنهم الجواب أربعين سنة وهم في العذاب، ثمّ يجيبهم:

﴿قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُون﴾

فلا فناء ولا نجاة من العذاب الأليم.

» من صِفات المؤمنين أنّهم يُلغون حاجز الزمان بين الفعل وبين الجزاء، ويُفكّرون في الآخرة كأنّها واقعة وهم أمام ربهم يُحاسَبون وفي الجنة داخلون.



وعلينا نحن الاعتبار بحقيقة الجنّة والنار، وأن نخشى العاقبة السوأى في القيامة، وأن ندعو الله تعالى نجاةً من النار، تماماً كما كان الرسول الأعظم والأئمة الأطهار عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام

(١)- سورة غافر، الآية ٥٠.

يدعون ربهم خوفاً من النار لأنّهم كانوا يعرفون حقيقة الآخرة.



بصائر وسُنَن

يتمنّى أهل النار الفناء الأبــدي ليتخلَّصوا من العذاب الأليم، ولكن لا فناء ولا نجاة من عقاب الله تعالى.



للحقّ كارهون

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«**الْزَمُوا الْحَقَّ تَلْزَمْكُمُ النَّجَاة**»[١].

تفصيل القول

إتماماً للحديث عن النار، وبعد أن أجابهم خازن النار بأنّهم ماكثون أبداً فيها، يبيّن لهم سبب ذلك:

(١)- غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٥٠.

﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾

كراهة الحق حالة نفسية، وذلك لمرارة الحق وصعوبة الاعتراف به، لكنّ المؤمن يتجاوز هذه الحالة ويسلّم للحق ويعمل من أجله.

قال ابن عباس: إنّ المراد من الأكثـر هنا هو الكل. ولعلّه فهم من الآية أنّ عادة البشر هي كراهية الحق إلّا من عصمه الله، ونستلهم من ذلك أنّ على الإنسان تجاوز هذه الكراهية في ذاته بعزم الإرادة حتى يبلغ الحق، أمّا إذا استرسل مع هواه فسوف يقوده الى الإبتعاد عن الحق والإرتماء في أحضان الباطل.



بصائر وسُنَن

كراهة الحق حالة نفسية، وذلك لمرارة الحق وصعوبة الاعتراف به، لكنّ المؤمن يتجاوز هذه الحالة ويسلّم للحق ويعمل من أجله.



فإنّا مُبرمون

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴿٧٩﴾﴾.

***

من الحديث

قال رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ في خطبة له في مسجد الخيف في آخر أيام التشريق في حجة الوداع:

«أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ ومَا الثَّقَلَانِ؟ قَالَ: كِتَابُ اللَّهِ وعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، فَإِنَّهُ قَدْ نَبَّأَنِي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ كَإِصْبَعَيَّ هَاتَيْنِ [وَجَمَعَ بَيْنَ سَبَّابَتَيْهِ] ولَا أَقُولُ كَهَاتَيْنِ [وَجَمَعَ سَبَّابَتِهِ والْوُسْطَى] فَتَفْضُلَ هَذِهِ عَلَى هَذِهِ.

فَاجْتَمَعَ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وقَالُوا: يُرِيدُ مُحَمَّدٌ أَنْ يَجْعَلَ الْإِمَامَةَ

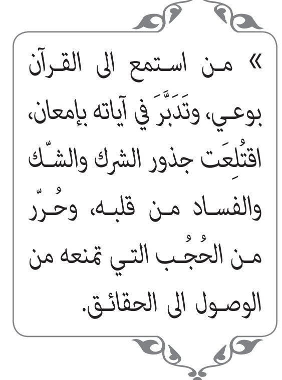
فِي أَهْلِ بَيْتِهِ. فَخَرَجَ أَرْبَعَةُ نَفَرٍ مِنْهُمْ إِلَى مَكَّةَ ودَخَلُوا الْكَعْبَةَ وتَعَاهَدُوا وتَعَاقَدُوا وكَتَبُوا فِيمَا بَيْنَهُـــمْ كِتَاباً: إِنْ مَاتَ مُحَمَّدٌ أَوْ قُتِلَ أَنْ لَا يَرُدُّوا هَذَا الْأَمْرَ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ أَبَداً.

فَأَنْــزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ فِي ذَلِكَ: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْواهُمْ بَلى ورُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾»[1].

تفصيل القول

من اســتمع الى القرآن بوعي، وتَدَبَّرَ في آياتــه بإمعان، اقتُلِعَت جذور الشرك والشكّ والفساد من قلبه، وحُرّر من الحُجُب التي تمنعه من الوصول الى الحقائق.

ومن ذلك أنّ القرآن الكريــم يُعالج حالة العناد في الانسان، لأنّ الانســان قد يعيش واقعاً فاســداً أو قد يحمل فكرة باطلة، فــإذا أغلق عن نفسه ســبيل الهداية فإنّ ربّنا تعالى أيضاً يُغلق عنه أسبابها، ولذلك فإن مصير المعاندين هو الخلود في نار جهنّم. يقول ربّنا تعالى:



» من استمع الى القرآن بوعي، وتَدَبَّرَ في آياته بإمعان، اقتُلِعَت جذور الشرك والشّك والفساد من قلبه، وحُرّر من الحُجُب التي تمنعه من الوصول الى الحقائق.

﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا﴾

حيث قرّروا أن لا يؤمنوا بالله، أو أن يرفضوا بعض الشرائع والتشريعات والأوامر الإلهية.

﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾

(١)- تفسير القمي، ج١، ص١٧٣.

فنحن في المقابل مبرمون، فقد قرّرنا وأبرمنا أمراً ثابتاً وهو أنّهم في النار خالدون، أو أبرمنا أمراً أساسياً من أمور الشريعة والدين من غير تراجع. والإبرام هو القرار الذي لا تراجع فيه أو تردّد.

وهكذا يُخرجهم ربّنا من النور الى الظلمات حين يختم على قلوبهم بسبب إصرارهم على الباطل.



بصائر وسُنَن

قد يعيش الانسان واقعاً فاسداً أو قد يحمل فكرة باطلة، فإذا أغلق عن نفسه سبيل الهداية فإنّ ربّنا تعالى أيضاً يُغلق عنه أسبابها، ولذلك فإن مصير المعاندين هو الخلود في نار جهنّم.



علاج التبرير

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠﴾.

***

من الحديث

«رويَ أنَّ النَّبِـيِّ ﷺ قَالَ لِبَعْـضِ أَصْحَابِهِ: سَـلِّمُوا عَلَى عَلِـيٍّ بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَـوْمِ: لَا واللَّهِ لَا تُجْمَعُ النُّبُوَّةُ والْخِلَافَةُ فِي أَهْلِ بَيْتٍ أَبَداً. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْواهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾»[1].

تفصيل القول

حالة أخرى يعالجها القرآن الكريم في هذه الآية، وهي حالة التبرير

(١)- بحار الأنوار، ج٣٧، ص٣٠٥.

واختلاف ظاهرِ الانسان عن واقعه ظنّاً منه بأنّه يستطيع خداع ربّه. فهو يعمل السيئات ويُبرّر لنفسه أنّه سيتوب قُبيل موته، كما قال عُمر بن سعد بن أبي وقاص لعنه الله عندما قرر الذهاب لقتل الإمام الحسين عليه السلام:

«يقولـون إنّ اللّه خالــق جنّة ونارٍ وتـعذيبٍ وغلّ يديـــن
فإن صدقوا فيما يقولون إنّني أتوب الى الرحمان من سنتين»

وهكذا يُغلق القرآن الكريم كلّ أبواب التبرير، ذلك لأنّ الرب أقرب الى الانســـان من حبل الوريد، وهو يعلم ما توسوس به نفسه، يقول تعالى:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى﴾

نســـمع سرّهم الذي يحدثون أنفسهم به فقط، ونسمع نجواهم الذي يتحدثون به في مجالسهم الخاصة.

﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

وليس يكتب رُسل الله عليهم أعمالهم فقط، بل وهم حاضرون عندهم، وحتّى الجـــدار والحجر والشـــجر والأرض واعضاؤه كلّها تشهد على الانسان يوم القيامة.



بصائر وسُنَن

الكثير من الناس يعمل السيئات ويبرِّر لنفسه بشتى التبريرات، ولكن القرآن أغلق كل أبواب التبرير حينما أعلن بأنَّ الله يســـمع السرّ والنجوى، وأنّ رسله يكتبون على الإنسان كل ما يعمل.



أوّلُ العابِدين

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴿٨١﴾﴾.

***

من الحديث

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«انَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وسلم: بِأَيِّ شَيْءٍ سَبَقْتَ الْأَنْبِيَاءَ وأَنْتَ بُعِثْتَ آخِرَهُمْ وخَاتَمَهُمْ؟

فَقَالَ: إِنِّي كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِرَبِّي وأَوَّلَ مَنْ أَجَابَ، حَيْثُ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ وأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ فَكُنْتُ أَنَا أَوَّلَ نَبِيٍّ قَالَ: بَلى. فَسَبَقْتُهُمْ بِالْإِقْرَارِ بِاللَّهِ عَزَّ وجَلَّ»[1].

(١)- الكافي، ج١، ص٤٤١.

تفصيل القول

كثُر كلام المُفسّرين عن هذه الآيــة، ومن أجل التدبّر فيها لابدّ من مقدّمتين:

أولاً: كما سبق ذكره إنّ سـورة الزخرف جاءت لانتزاع القيم المادّيــة من قلــوب البشر، ولكي لا تكــون المادّة مقياسـاً للحقّ والباطل، ولذلك ذُكر في الســورة النبــي عيســى عليه السلام باعتبــاره رمز التجــرّد عن المادّيات، لكنّ البعض بسـبب جهلــه إتخذّ النبي عيسى عليه السلام إلهاً، ومن هنا انتقل السياق القرآني الى ذكر رســول الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصفة العبودية فيه، بل وكونه اوّل العابدين، أي أنّ عبوديته ســبقت رُتبياً وزمانياً كلّ البشر حتىّ الانبياء عليهم السلام.

» إنّ سـورة الزخـرف جـاءت لانتـزاع القيـم المادّيـة مـن قلـوب البـشر، ولـكي لا تكـون المـادّة مقياسـاً للحـقّ والباطـل.

ثانيــاً: في الآيــات القرآنية أبعــاد مُختلفة، حتّى أنّ الكلمة الواحدة قــد تكون لها امتدادات وايحاءات مختلفة، ومن هنا لعلّ كلّ ما قاله المُفسّرون بالنســبة الى هذه الآية يكون صحيحاً.

هل للرحمن ولد؟

يقول ربّنا المُتعال:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾

بدل البحث عن الشركاء من دون الله، على الانســان الفرار الى الله، لأنّه هو الرحمن، ولذلك استُخدم هذا الاسم المُبارك في الآية.

وهكـــذا نفت الآية الكريمـــة الشريك عـــن الله ببلاغة نافذة، فكلمة (إنْ) هنا نافيـــة، ومعناها: ما كان للرحمن ولد. ويبدو أنّ معنى النفي مفهوم من مجمل تركيب الجملة، وليس من كلمة (إِنْ).

الشفاعة الباطلة

تُرى لماذا قال النصارى بأنّ المسيح هو ابن الله؟

عند التأمّل نجد أن التخلّص من المســؤولية، والتفكير بجلب رضى الابن، والاستغناء بذلك عن مرضاة الله، هو الســبب في اعتقادهم، وهذا الإعتقاد هو الشفاعة الباطلة التي ترفضها مدرسة اهل البيت عليهم السلام.

» الرسـول اوّل مَـنْ عَبَدَ الله، وهـو أعظـم الخلائـق، فكلّما كانت النعمة أكبر كانت العبودية أعمق وأوسع، لذلك كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوّل العابديـن.

في معرض الرد عن هذه الفكرة جاء السياق القرآني وبيّن بأنّ النبي هو اوّل الخائفين الُمشفقين، فهـــو أوّل العابديـــن فحريٌّ بنـــا إذن أن نكون في مسيرة العبودية لربّنا العظيم.

و قـــد جاء في الرواية عـــن أبي ذر الغفاري رضـــوان الله تعالى عليه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، في خبر طويل في وصف المعراج ســاقه الى أن قال: «**قُلْتُ: يَا مَلَائِكَةَ رَبِّي، هَلْ تَعْرِفُونَّا حَقَّ مَعْرِفَتِنَـــا؟ فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وكَيْــفَ لَا نَعْرِفُكُمْ وأَنْتُمْ أَوَّلُ مَا خَلَـــقَ اللَّهُ؟ خَلَقَكُمْ أَشْــبَاحَ نُورٍ مِنْ نُورِهِ فِي نُورٍ مِنْ سَـــنَاءِ عِزِّهِ ومِنْ سَـــنَاءِ مُلْكِهِ ومِنْ نُـــورِ وَجْهِهِ الْكَرِيم، وجَعَـــلَ لَكُمْ مَقَاعِدَ فِي مَلَكُوتِ سُـــلْطَانِهِ وعَرْشُـــهُ عَلَى الْمَاءِ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ السَّمَاءُ مَبْنِيَّةً والْأَرْضُ مَدْحِيَّةً، ثُمَّ خَلَقَ السَّـــماواتِ والْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام، ثُمَّ رَفَعَ الْعَرْشَ إِلَى السَّـــمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَوَى عَلَى عَرْشِـــهِ وأَنْتُمْ أَمَامَ عَرْشِهِ**

تُسَـبِّحُونَ، وتُقَدِّسُـونَ، وتُكَبِّرُونَ. ثُمَّ خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ بَدْءِ مَا أَرَادَ مِنْ أَنْوَارٍ شَـتَّى، وكُنَّا نَمُرُّ بِكُمْ وأَنْتُمْ تُسَبِّحُونَ، وتَحْمَدُونَ، وتُهَلِّلُونَ، وتُكَبِّرُونَ، وتُمَجِّدُونَ، وتُقَدِّسُونَ، فَنُسَبِّحُ، ونُقَدِّسُ، ونُمَجِّدُ، ونُكَبِّرُ، ونُهَلِّلُ بِتَسْـبِيحِكُمْ، وتَحْمِيدِكُمْ، وتَهْلِيلِكُمْ، وتَكْبِيرِكُمْ، وتَقْدِيسِكُمْ، وتَمْجِيدِكُمْ. فَمَا أُنْزِلَ مِنَ اللَّهِ فَإِلَيْكُمْ، ومَا صَعِدَ إِلَى اللَّهِ فَمِنْ عِنْدِكُمْ. فَلِمَ لَا نَعْرِفُكُم؟»[1].

فالرسـول اوّل مَنْ عَبَدَ الله، وهو أعظم الخلائق، فكلّما كانت النعمة أكبر كانت العبودية أعمق وأوسع، لذلك كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوّل العابدين.



بصائر وسُنَن

التخلّص من المسـؤولية، والإهتمام بجلب رضى الإبن عوضاً عن مرضاة الله هو السبب في اعتقاد النصارى بأنَّ المسيح ابن الله، وهذا الإعتقاد هو الشفاعة الباطلة.

(١)- بحار الانوار، ج ١٥، ص٨.



سبحان ربّك عمّا يصفون

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢)﴾.

***

تفصيل القول

حينما نتوجــه الى ربّنا العظيم والى عظيم خلقــه نُعظّمه من أن يكون له ولد، فهو سبّوح قدّوس مُنزّه من نسبة الاشخاص اليه:

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

لو أنّهم عرفوا شيئا من عظمة ربّهم لما خرقوا له بنين وبنات، ولما شبّهوه بأنفسهم في الأمثال والصفات.

إنّه هو الله ربّ السماوات والأرض، وربّ القدرة العظيم.



بصائر وسُنَن

حينما نتوجـــه الى ربّنا العظيم والى عظيم خلقـــه نُعظّمه من أن يكون له ولد، فهو سبّوح قدّوس مُنزّه من نسبة الاشخاص اليه.



يخوضوا ويلعبوا

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يُطَاعُ جَبْراً وَلَا يُعْصَى مَغْلُوباً، وَلَمْ يُهْمِلِ الْعِبَادَ مِنَ الْمَمْلَكَةِ، وَلَكِنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُمْ عَلَيْه»[1].

تفصيل القول

من الناس من يتمحور حول الحق، يدور معه أينما دار، وكلّما تشابه عليه الموقف بحث عن الحق ليتّبعه، فلا يأبه بالمصالح ولا

(١)- تحف العقول، ص٣٧.

بالعصبيات ولا بأهوائه الذاتية.

في المقابل من الناس من يضيّع بوصلة الحق ليكون أمره فُرطا، وسِمةُ هؤلاء هو الخوض واللعب.

والخوض هو تحرّك الانسان ضمن الاجواء المُحيطة به، حيثُ يُكيّف الانسان واقعه مع الناس، وهكذا تُصبح القيمة الاساسية عنده هو نظرة الآخرين اليه، لذلك يقول ربّنا في سورة المُدّثر عند حديثه عن المجرمين وسبب خلودهم في النار: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾[1]. أي إنّ هؤلاء ضيّعوا أنفسهم بنسيان عقولهم وخوضهم مع الخائضين.

» قد كانت مسؤولية الانبياء ومن يسير على خطاهم هو دعوة الناس وإنذارهم، ولكنّ الناس هم المسؤولون عن أنفسهم بعد إبلاغ الرسالة.

أمّا اللعب فهو السعي المنظّم لأهداف غير رشيدة لا تتمحور حول الحق.

وقد كانت مسؤولية الانبياء ومن يسير على خطاهم هو دعوة الناس وإنذارهم، ولكنّ الناس هم المسؤولون عن أنفسهم بعد إبلاغ الرسالة، لذلك يقول ربّنا:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾

إنْ اختاروا اللاهدفية واللعب في الحياة. ولكن هناك اجلٌ لذلك، فإلى متى الخوض واللعب؟

﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾

واليوم الموعود هو الموت الذي لا مفرَّ منه.

(١)- سورة المدّثر، الآية٤٥.

ونســتفيد من هذه الآية أنَّ فُرصتنا في الحياة محدودة، لأنَّ الحياة تسير بكل إنسان الى أجله بسرعة.

ولنتأمّــل في كلمة (يلاقــوا) التي تدل على تقــارب الطرفين، يقول تعالى في آيــة اخرى: ﴿قُــلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِى تَفِــرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[1].

فالموت قادم ونحن ذاهبون اليه، فنحن نقترب اليه وهو يقترب الينا، وفي لحظةٍ ما حتماً ســيكون اللقاء، لذلك علينا الاستعداد لذلك اليوم حيث ينقطع العمل ويبدأ الحساب.



بصائر وسُنَن

الخوض هو تحرّك الانســان ضمن الاجــواء المُحيطة به، حيثُ يُكيّف الانسان واقعه مع الناس، وهكذا تُصبح القيمة الاساسية عنده هو نظرة الآخريــن اليه. أمّا اللعب فهو الســعي المنظّم لأهداف غير رشيدة لا تتمحور حول الحق.

(١)- سورة الجمعة، الآية ٨.



في السماء اله وفي الارض

﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن هشام بن الحكم، قال: قال أبو شاكر الديصاني: إنّ في القرآن آية هي قولنا. قلت: وما هي؟ فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾. فلم أدر بها أجيبه، فحججتُ فخبرت أبا عبد الله عليه السلام، فقال:

«هَـذَا كَلَامُ زِنْدِيقٍ خَبِيثٍ. إِذَا رَجَعْتَ إِلَيْهِ فَقُلْ لَهُ: مَا اسْمُكَ بِالْكُوفَةِ؟ فَإِنَّهُ يَقُولُ: فُلَانٌ. فَقُلْ لَهُ: مَا اسْمُكَ بِالْبَصْرَةِ؟ فَإِنَّهُ يَقُولُ: فُلَانٌ. فَقُلْ: كَذَلِكَ اللَّهُ رَبُّنَا فِي السَّماءِ إِلـهٌ، وَ فِي الْأَرْضِ إِلهٌ، وَ فِي الْبِحَارِ إِلَهٌ، وَ فِي الْقِفَارِ إِلَهٌ، وَ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَهٌ».

قال: فقدمتُ فأتيتُ أبا شــاكر فأخبرته، فقال: هذه نُقِلَتْ من الحجاز[1].

تفصيل القول

كيف يمكن للانســان أن يخرج من اطار الغفلة ولا يكون ممّن يخوض مع الخائضين؟

نستطيع ذلك بتذكّر الله عزّ وجل وقُربه منّا، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2].

لكنّ الانسان لغفلته يجعل حاجزاً بينه وبين ربّه المتعال الذي يقول:

﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾

كان بعض المشركين يعتقدون بآلهة متعددة: فإله للشــمس، وإله للارض، وإله للبحر، وآخر للبر، وهكذا كانوا يعتقدون بأنّ لكل ذي قوة إلهاً، وهو إعتقاد ناشئ من الجهل، ذلك:

» بعض المشركين يعتقدون بآلهة متعددة: فإله للشمس، وإله للارض، وإله للبحر، وآخر للبر، وهكذا كانوا يعتقدون بأنّ لكل ذي قوة إلهاً، وهو إعتقاد ناشئ من الجهل.

اولاً: لأنّ العلم كشــف لنا القوانين التي تحكم الارض، وأنّها متطابقة مع القوانين التي تحكم كلّ المجــرّات، فمن الذرّة المتناهية في الضآلة الى المجرة الكبيرة كلّها محكومة بذات القوانين.

(١)- الكافي، ج١، ص١٢٨.

(٢)- سورة البقرة، الآية١٨٦.

فَمَنْ وضـع نظام الذرّة هو الذي وضعـه للمجرّة، فهو إلهٌ في الارض وإلهٌ في السماء.

ثانياً: لأنّ الإله مُتكبّر لا يخضـع لغيره، فإذا كان لكل شيء إله فلمَ لم نَرَ يوماً تصارع الشمس والقمر - مثلاً - أو البرّ والبحر؟ يقول تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1].

ثالثاً: للتكامل الموجود في الخليقة، فالأرض متأثرة بالشـمس والقمـر وبالنجوم ايضاً، ولو انعدم اليوم نوعٌ من انـواع الحيوانات فإنّه يؤثر على نظـام العالم كلّه، وهذا يـدل على أنّ إله كل أجزاء العالَم واحدٌ وهو الذي يدبِّر الأمور كلها:

» كلمة (إله) قد تكون من (الألوهة) التي تعني العبادة. وقد تكون بمعنى: أَلِهَ إليه، أي: فزع إليه، حيث العباد يفزعون إليه في أمورهم.

﴿وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَـٰهٌ وَفِى الْأَرْضِ إِلَـٰهٌ﴾

وماذا تعني كلمة (إله)؟

هناك آراء مختلفـة، ولا مانع من أن تكون كلها صحيحة.

فقد تكون الكلمة من (الألوهة) التي تعني العبادة. وقد تكون بمعنى: أَلِهَ إليه، أي: فزع إليه، حيث العباد يفزعون إليه في أمورهم. وقد تكون الكلمة مشـتقة من (الوَلَه) بمعنى التحيّر، حيث تتحيّر العقول في عزّته وعظمته.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

فربّنا المُتعـال يُدبّر الامور بحكمة بالغـة الدقّة، فهو حكيم في

(١)- سورة الأنبياء، الآية٢٢.

الكليّات عليم بالجزئيّات.

بصائر وسُنَن

القوانين التي تحكم الارض متطابقة مع القوانين التي تحكم كلّ المجرّات، فمن الذرّة المتناهية في الضآلة الى المجرة الكبيرة كلّها محكومة بذات القوانين. فَمَنْ وضع نظام الذرّة هو الذي وضعه للمجرّة، فهو إلهٌ في الارض وإلهٌ في السماء.



اليه ترجعون

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

* * *

من الحديث

روي عن أبي جعفر عليه السلام، أنَّه قال:

«إِنَّ لِلَّـهِ عِلْماً عَامّـاً وَ عِلْماً خَاصّاً، فَأَمَّا الْخَـاصُّ فَالَّذِي لَمْ يَطَّلِـعْ عَلَيْهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَ لَا نَبِيٌّ مُرْسَـلٌ، وَ أَمَّا عِلْمُـهُ الْعَامُّ الَّذِي اطَّلَعَتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَـلُونَ فَقَدْ دَفَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَيْنَا.

ثُمَّ قَالَ: أَ مَا تَقْرَأُ: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾»[1].

(١) – بحار الأنوار، ج٢٦، ص١٦٣.

تفصيل القول

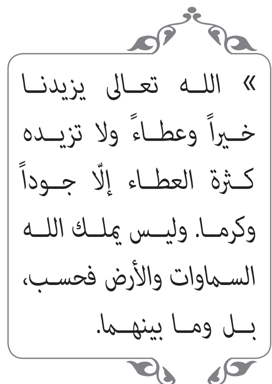
هذه الآية تجيب على إشـكال قد يُثار في الآية السـابقة، فإذا كان الله إلهـاً في السـماء وكان إلهاً في الأرض، فمن يملك السـماء والأرض؟

تجيب الآية:

﴿وَتَبَـارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْـكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾

فالسماوات والأرض ملكه وتحت قبضته، وهو إلاهها ومالكها والمتصرِّف فيها.

و(تبارك) مشتق من البركة، ومعنى البركة الثبات والزيـادة في الخير، فالله تعالى يزيدنا خيراً وعطاءً ولا تزيده كثـرة العطاء إلّا جوداً وكرما. وليس يملك الله السـماوات والأرض فحسب، بل:



﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾

فنحـن نعرف اليوم عن الجاذبية بعض الشيء، ولكنّنا لا نعرف شـيئاً يُذكر عن الامواج والاشـعّة التي تملأ ما بين السماء والأرض، وعن تأثيراتها السلبية او الايجابية على كل ما في الكون، ولكن ربّنا هو المهيمن عليها.

﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾

فهــو عالمٌ بقيام الســاعة، وهــو شيء عظيم كما قــال ربّنا في ســورة الحج: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّــاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[1].

ومرجعنا اليه من الحساب والعقاب او الثواب:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

وحين يلتفت الانســان الى هذه الاسماء الحسنى ويفهم الحقائق فإنّه لا يلعب ولا يخوض مع الخائضين.



بصائر وسُنَن

الله تعالى يملك السماوات والارضين، وهو العالم بالساعة واليه مرجع الخلائق جميعا.

(١)- سورة الحج، الآية ١.



إلّا من شهد بالحق

﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

***

تفصيل القول

المعارف الالهية العُليا دقيقة وينبغي أن يكون الموقف منها سليماً، لأنّ أيّ أنحراف فيها يؤدي الى ضلال بعيد.

فمن معرفة الله تعالى وهي أعلى المعارف، والى معرفة الملكوت الالهي والملائكة، وهكذا الانبياء، كلّ ذلك كان محوراً لرسالات الأنبياء، وهي التي ضلّ فيها الكثير من البشر، لأنّ عادة البشر التعامل مع الجزئيات بينما معرفة الله ومعرفة الملائكة الذين يُحيطون بهذا الكون الرحيب، وهكذا معرفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم معارف عظيمة قد لا يأبه الانسان بها، وبالتالي قد يخضع فيها للضلالات ووساوس الشيطان.

ومــن هنا تجد أنّ القرآن الكريم في الوقت الذي يُحدّثنا عن أدقّ الأمور التــي ترتبط بالاحكام الشرعية، كالتطهُّــر والصلاة والصوم والزكاة، كذلك يُكلّمنا عن محور معرفة الله ســبحانه وتعالى، ومعرفة ملائكته.

في نهاية ســورة الزُخرف المباركــة يُحدّثنا القــرآن الكريم عن المعارف العُليا، لأنّ هذه الســورة تتمحور حول بيان القيم الصحيحة التي ينبغي على الانســان أن يكيِّف حياته وفقها، والقيم المادّية الزائفة التــي ينبغي أن يتخلَّص منها. وفي نهاية الســورة يُحدّد ربّنا القيم التي ينبغي أن تتجلّى في شــخصية الانسان المؤمن.

» إنّ القرآن الكريم في الوقت الذي يُحدّثنا عن أدقّ الأمور التي ترتبط بالاحكام الشرعية، كذلك يُكلّمنا عن محور معرفة الله سبحانه وتعالى، ومعرفة ملائكته.

فمن الآية ٨٤ نقرأ عــن الإله وأنّه حكيم وعليم، وحيثُ إنّه يتحلّى بتلك الصفات فاذن هو أولى بأن يُدبّر أمورنــا، لأنَّ لديه الحكمة والعلم، وقد تبارك ربّنا فــكلّ شيء من عنده، وخزائنه لا تنفذ.

فهذا ما نعتقد به، إنه إله في الســماء وإله في الأرض، وهو يحاسبنا، وهو محيطٌ بنا.

وبعد معرفتنا بــالله نعرف مخلوقاته، وهي على قســمين: منها المخلوقات العُليا وأخرى المخلوقات الدُنيا.

فالمخلوقــات العُليــا - كالملائكة، والــروح، وروح القدس، والأنبياء - ينبغي أن تكون معرفتنا بهم دقيقة، فمن جهة لا نرفعهم الى مقام الألوهية، ومن جهة أخــرى لا نُنزلهم الى مقام البشر، فلا إفراط

ولا تفريط.

وهكذا ينبغـــي أن تكــون معرفتنا بالأنبياء غــير منفصلة عن معرفتنا بالله سبحانه وتعالى.

ومن ذلك أنّ شفاعة الأنبياء لا تكون إلّا باذن الله، فهي من نِعم الله تعالى عليهم.

يقول تعالى:

﴿وَلَا يَمْلِــكُ الَّذِيــنَ يَدْعُونَ مِــنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾

» ينبغي أن تكون معرفتنا بالأنبياء غير منفصلة عن معرفتنا بالله سبحانه وتعالى. ومن ذلك أنّ شفاعة الأنبياء لا تكون إلّا باذن الله، فهي من نِعم الله تعالى عليهم.

ففي مسألة الشفاعة حدّان:

الأوّل ينفي الشــفاعة الذاتية، والثاني يُثبت الشــفاعة التي أذن الله تعالى لهم فيها، فكما يشهد الملك لشخص فتكون شهادته شفاعته، هكذا عند عرض الاعمال على المحكمة الالهية قد تملك قبولاً فيرتفع به الانسان.

يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1] .

فهُم أبواب الله والوسيلة اليه وشهادتهم هي بالحق:

﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

كما أنّه في عــالم التكوين ليــس هناك الله وإبنــه، فكذا في عالم

(١)- سورة المطففين، الآيات ١٨-٢١.

التشريع، فإنّه لا شــفيع عند الله إلّا من شهد بالحق، فالفضل آنئذ لله، والقــدرة له وحده، وهو يمنح من قدرته ما يشــاء لمن يشــاء دون أن تنقص قدرته مقدار ذرّة، ومن دون أن يصير ذلك صاحب قدرة ذاتيّة، وليس باستطاعة أحد أن يقف أمام الله، فالكلّ - مهما أوتوا - عبيد له سبحانه، وإنّه لا يشفع أحدٌ لأحدٍ إلّا من شهد بالحق.



بصائر وسُنَن

عادة البشر التعامل مع الجزئيات بينما معرفة الله ومعرفة الملائكة الذيــن يُحيطون بهذا الكــون الرحيب، وهكذا معرفــة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، معارف عظيمة قد لا يأبه الانسان بها، وبالتالي قد يخضع فيها للضلالات ووساوس الشيطان.



أنّى يُؤفَكون

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٨٧﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن أبي هاشم الجعفري، قال: سألت أبا جعفر الثاني عليه السلام ما معنى الواحد؟ فقال:

«إِجْمَاعُ الْأَلْسُنِ عَلَيْهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾»[1].

تفصيل القول

كيف نعرف ربّنا؟ يُريد البعض أن يعرف ربّه من خلال المبضع،

(١)- الكافي (ط - الإسلامية)، ج١، ص١١٨.

لكنّ الواقع إنّ معرفته هي معرفة وجدانية.

وهي المعرفة التـــي قالها الامام الصادق عليه السلام لذلك الرجل حين سأله عن الله فقال: يا بن رسول الله، دلني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليّ المجادلون وحيروني.

فقال له الامام عليه السلام: «**يَا عَبْدَ اللَّهِ هَلْ رَكِبْتَ سَــفِينَةً قَطُّ**»؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «**فَهَلْ كُسِــرَ بِــكَ، حَيْثُ لَا سَــفِينَةَ تُنْجِيكَ وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ**»؟ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «**فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ أَنَّ شَــيْئاً مِنَ الْأَشْــيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِــنْ وَرْطَتِكَ**»؟ فَقَالَ: نَعَمْ.

قَالَ الإمام الصَّادِقُ عليه السلام: «**فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللَّهُ الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَــاءِ حَيْثُ لَا مُنْجِيَ، وَ عَلَى الْإِغَاثَةِ حَيْثُ لَا مُغِيثَ**»[1].

» ما دام الله هو الخالق فلماذا ننخدع بوساوس ابليس، ونقتحم الحرام؟ ولو صبرنا لجعل الله لنا مخرجاً، لذلك يقول ربّنا: (فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ).

فباســتنطاق الوجدان نعرف ربّنا وتتجلّى فينــا المعرفة الفطرية التي فطرنا الله عليها منذ عالم الذر.

يقول تعالى:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾

فما دام الله هو الخالق فلماذا ننخدع بوســاوس ابليس، ونقتحم

(١)- التوحيد للصدوق، ص٢٣١.

الحرام؟ ولو صبرنا لجعل الله لنا مخرجاً، لذلك يقول ربّنا:

﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾

فأين يذهبون؟ وأنّى يُصرفون؟ ولماذا ينخدعون؟ إنّما المرجع الى الله ربّ العالمين.



بصائر وسُنَن

باستنطاق الوجدان نعرف ربّنا وتتجلّى فينا المعرفة الفطرية التي فطرنا الله عليها منذ عالم الذر.



قومٌ لا يؤمنون

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَـٰـؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

***

من الحديث

في الحديث عن امير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«أَعْطِ النَّاسَ مِنْ عَفْوِكَ وَ صَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ، وَ عَلَى عَفْوٍ فَلَا تَنْدَم»[1].

تفصيل القول

لا يكتمل الدين إلّا بوجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الذي كان يكابد ليلاً ونهاراً من أجل هداية الناس، ولذلك وصل الى حيث اليأس من

(١)- غرر الحكم ودرر الكلم، ص١٣٨.

هدايتهم:

﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

ولعلّ التعبير بـ (قوم) للدلالة على أنّهم اجتمعوا على ترك الإيمان.

وإذا كانوا لا يؤمنون فكيف يتعامل النبي صلى الله عليه وآله وسلم معهم؟ هل يدعو عليهم بالعذاب، كما فعل يونس ابن متّى عليه السلام؟ تحدّد الآية الأخيرة من هذه السورة العلاقة السليمة معهم:

﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾

إنّها علاقة العفو عن جرائمهم بحقّه، والسلام معهم، وهكذا يحمل المؤمن في داخله قلباً يسع الدنيا ويزيد، لأنّ نظره الى الآخرة، ولا يأبه بما يجري حوله هنا.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

فالجزاء الحقيقي يأتي في يوم القيامة.



بصائر وسُنَن

إنَّ علاقة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقومه علاقة العفو عن جرائمهم بحقّه، والسلام معهم، وهكذا يحمل المؤمن في داخله قلباً يسع الدنيا ويزيد، لأنّ نظره الى الآخرة، ولا يأبه بما يجري حوله هنا.